عذراء الغروب

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET LONDON W1, UK TEL 637 2743/4 TELEX SHOROK 25779G

عذراء الغروب



رواية

دار الشروق

مجيد طوبيا

الفصل الأول

عذراء الغروب



الساعة ١٢,٠٠ ظهراً

محاولة فهم أولية من العاشق المهجور

مهندس زراعي / سامي (٣٩ عاماً)

صوبت العجوز البندقية في وجه ابنتها، فلما تقدمت خطوة أخرى تحرك الأصبع إلى الزناد.. وانفغر فم الضرير الجالس تحت قدميها.. وحملقت البنية مستهولة، فهل يعقل أن تطلق الأم الرصاص على وحيدتها؟!.. شيئاً ما رأته «خمرية» في نظرات أمها صدها وجعلها تتراجع منكسرة وشعرها الناعم يترجرج من فوق كتفيها!!.. لعلها نظرات جنون أكيدة أطلت من عيني العجوز الواسعتين، جنون لا يجعلها تميز بين الغريب مثل الشابوري كبير البدو وبين القريب مثل ابنتها خمرية، العذراء الجميلة الفتية، المنسالة دموعها كحبات اللؤلؤ فوق خديها!!

الساعة الثانية عشرة، والشمس تتوسط السماء، تسقط عمودية فوق رؤوس العباد فتتوارى الظلال تحت الأقدام.. ولا أدري جدوى أفعال هذه السيدة وما هي إلا كائن صغير في مواجهة جهاز كبير؟!.. الذي لا شك فيه أن الإنسان هو أغرب ما خلق في هذا الكون، وهذا بالطبع لا ينفي أن حيوانات أخرى عديدة لا تقل عنه غرابة منها الحمار مثلاً!

نجحت هذه المرأة في أن تلم من حولها جميع الفلاحين وجميع البدو، رجال ونساء وأطفال، ولم يفارق أحدهم المكان رغم حرارة الجو. الحادث مثير وفريد في نوعه، وبطلته معروفة لهم جميعاً، ويبدو أنهم في انتظار أن تقوم بمفاجأة ما، كجمهور السيرك عندما يترقب اللعبة الكبرى!!.. فصار المنظر كما أراه من فوق كوم الرمال هذا عجيباً غريباً: القبر ومن فوقه المرأة العجوز ببندقيتها، شديدة الانتباه لكل حركة حولها، تخشى أن يتسلل أحدهم من خلفها ويجردها من سلاحها ثم ينتزعها عنوة من موقعها.. وكلما اطمأنت رمقت في حنان شاهد القبر، ربما لتسأل زوجها الراحل ان كان ما تفعله يرضيه ويريحه!!..

والأعجب منها ذلك الكائن القابع تحت قدميها، الكهل الضرير الذي يحاول أن يتابع الأحداث بأذنيه، وأن يجمع فيهما حاستي السمع والبصر معاً.. المؤكد أنه كان قوياً كالفحل في شبابه، وأن هذه المرأة كانت جميلة جداً وشهية، على الأقل بمقاييس زمانها، يشهد على ذلك حسن ابنتها خمرية، عذراء الثمان عشرة ربيعاً، ذات الشعر الفحمي والعينين المتسعتين ـ الدامعتين الآن! ـ لو كانت أكبر من عمرها ولو كنت أنا أكثر شباباً لتجاوبت معها..

من طلعة الفجر وفاتنة الزمن الغابر تجلس مع خادمها الضرير تلوح ببندقيتها وتهدد وتردد في اصرار: «لن يمس انسان هذا القبر، لن يمس انسان هذا القبر» ـ وكأنها تخبيء داخله كل ميراثها وجواهرها!! ـ وعندما حاول سائق الحفار أن يجرف الأرض من حوله أطلقت نحوه رصاصة

كسرت زجاج كابينته، ودوى صداها في أنحاء القرية وفي حضن الجبل، فملأ المكان من حولها فلاحين من شتى الأعمار، وبدو راجلين أو فوق الجمال، والجميع في فضول وتوتر فوق أكوام التراب التي رفعها الحفار على الجانبين، أو فوق قاع المجرى ذاته الممتد من بحر يوسف والذي يلعب فيه العيال الآن والذي ستغمره المياه بعد ساعات ليصبح لزاماً عليهم أن يتعلموا السباحة حتى يلعبوا في مكانهم هذا. .

رجال المشروع متناثرين هنا وهناك قلقين، وقوفاً أو داخل السيارات. . والنسوة تنظرن في شفقة ومصمصة. . والجميع يشكلون في سيرك الأرملة ذات البندقية وضريرها دائرة تتعرج وترتفع وتنخفض طبقاً لتضاريس الأرض. . ومن خلفهم بيتها المكون من طابقين والذي يقف شامخاً ـ والمقياس نسبي ـ يكاد يخفى من ورائه معظم بيوت القرية التي لا تزيد عن مجرد كونها أكواخاً طينية، في حياتي لم أر بيتاً يعتني بتجميل مؤخرته أكثر من واجهته، ولم أر شرفة تبنى في مواجهة قبر!!. .

سائق الحفار في الكابينة ينتظر تعليمات الألفي مدير المشروع ورئيسي الموقر صاحب الصلعة اللامعة، والذي يأمر ويكتب التقارير ويتحول كل عمل عنده إلى ملفات وأرقام!!

أنا ملف والمهندس توفيق ملف. . وهذا المأخذ، الترعة الجافة الممتدة حتى سفح الجبل ملف، فيه تاريخ بدأ الحفر وتاريخ الانتهاء، وعدد الأمتار المكعبة التي تم رفعها والطول والعرض والعمق. . وأيضاً

الحفار، الآلة الضخمة التي أنجزت هذا المأخذ ملف. . ولكن ماذا سوف يفعل مديري الموقر ازاء زجاج «الكابينة» الذي تهشم؟؟. . الزجاج جزء من الكابينة، والكابينة جزء من الحفار، والحفار كله عهدة لدى السائق، لكن الزجاج تهشم بفعل رصاص هذه المرأة، فهل سيحرر محضراً بذلك لدى الشرطة، أم أنه سيضيفه تحت نسبة فاقد الاستهلاك؟!. . المؤكد أن ملفاته سوف تزداد ملفاً جديداً يحمل عنوان «زجاج كابينة الحفار»!!

ومنذ قليل اتجه إلى مخرج الجريدة السينمائية الذي جاء لتصوير مراحل المشروع الأخيرة وصاح فيه بألا يصور المرأة العجوز وأفعالها، قال له:

ــ لا تصور هذا، لا تصوره. . هذا المشهد ليس ضمن المشروع. .

وكأن المخرج لا يعرف هذا؟. . ولا بد أنه وزميله المصور قد ضحكا غيظاً وهما يشاركان السائق كابينته العالية، كانا يريدان مكاناً مرتفعاً لتصوير موقع العمل بأكمله فإذا بهما يصبحان تحت رحمة رصاص العجوز، لكنهما من مكانهما يستطيعان رؤية بحر يوسف عن بعد حيث ينبع منه هذا المأخذ والذي ستغمره المياه ابتداء من تمام الساعة الرابعة، ولابد من ازالة هذا الشريط الأرضي الذي يحمل القبر ويقف كالسد. . وإلا فانه سيمنع تدفق المياه إلى آلات الرفع عند سفح الجبل، فكيف سيتصرف الألفي؟؟. . ها هو يواصل هرش صلعته التي ستدمى اليوم

دون شك، العرق يبلل وجهه وتحت أبطيه، وقد فقد أناقته التي تهيأ بها كضرورة للظهور في الفيلم التسجيلي، الذي سيعرض في دور العرض والتليفزيون، والذي سيشاهده الوزير دون شك!

الدكتورة سوسن ـ أحلى انسان في المشروع ـ تحادث المرأة!! . . تحاول أن تشغلها عن البدوي الذي راح يتسلل من خلفها على أمل أن يخطف منها البندقية . . العيون تنتقل متوترة بين الطبيبة وبين البدوي . . العجوز غير منتبهة اليه، منشغلة بسب سوسن وباتهامها بالفجر وبأنها ـ لابد ـ قد تنقلت بيننا جميعاً، كل واحد ليلة!! . . «خمرية» تشهق، تداري وجهها خجلاً من كلام أمها . . العمدة، غرباوي العمدة يرمق الطبيبة في تشفي . . والألفي يرقب تسلل البدوي في لهفة . . والبدوي يتسلل في بطء وحذر، لكن أذن الضرير تلتقط حركته الخافتة فينبه السيدة في آخر لحظة، التي تسارع بلكز البدوي في صدره بكعب البندقية لكزة قوية ترده خائباً، وتدفع بأصابع الألفي إلى هرش صلعته في عصبية كبيرة، وهو يسرع صوب الحفار ثانية وينادي على المخرج مؤكداً عليه بأن كل ما يحدث الآن لا يدخل ضمن المشروع وعليه ألا يصوره في الفيلم نهائياً!!

في بداية مجيئه كان تحفة الناظرين هذا الحفار الآلي الضخم، تجمع من حوله الفلاحون وحام البدو مندهشين من جاروفه الكبير وهو يغرف من التربة الرملية ما يعادل عشرات المقاطف في جرفة واحدة ثم يرتفع حتى يوازي سعف النخيل ويلقي به جانباً، وسائقه في كابينته

العالية يوجهه في سهولة ويسر، يقوده كسيارة ويديره كحفار عظيم، وهم بدهشتهم من أسفله صغار الحجم!!.. بدأ عند بحر يوسف وفي خمسة أيام فقط كان الحفر قد وصل إلى هنا، فلما وجدنا القبر يعترض مساره تخطاه الحفار مؤقتاً مكملاً شق المأخذ حتى آلات الرفع عند سفح الجبل، على أمل أن نقنع العجوز بنقل قبرها الغالي، لكنها لم تقبل ورفضت مقابلة الألفي، رافضة أي نقاش في هذا الموضوع..

وبديهياً أن يفرح الناس بالترعة الجديدة وبالمياه العذبة، لكنهم ردموها ولم نفهم السبب!!.. في ليلة واحدة ردموا ما حفرناه في خمسة أيام، الحفر صعب والردم أسهل.. والمدهش أنهم فعلوا ذلك في ساعات قليلة وتحت جنح الظلام، مع أنهم لا يمتلكون آلات مثلنا!.. كيف فعلوا ذلك؟؟.. هذا ما يحيرني.. انهم لا يمتلكون علمنا لكنهم بلا شك خبراء في مسائل الزرع والري والحفر والردم!!.. غير أن الحفار أعاد المأخذ ثانية وبقي هذا الشريط الشاذ الذي تحتله العجوز وضريرها، وتكمن من فوقه ببندقيتها محتمية بشاهد قبره العالي!

ولكن كيف بدأ كل ذلك؟؟

كنا خمسة فقط، نحن الرواد كما يقولون.. بل ستة، كان معنا أيضاً المهندس توفيق الذي لم تفارق السيجارة فمه ثم سافر في أول إجازة ولم يعد، تمارض واستطاع تجديد إجازته المرضية عدة مرات، لم يعمل معنا سوى أسبوعين أو أقل، وأعرف أنه يعمل دون عقد وبأجر ضخم لدى

مهندس مقاول كبير، ورغم هذا فهو محسوب على قوة المعسكر، وهذا يؤكد ما قلته لرئيسنا الأصلع من أن العمل في مثل هذه المشاريع يجب أن يكون تطوعاً عن اقتناع، اختياراً وليس تكليفاً. . أنا شخصياً أحب عملي هذا، وأعتبر نفسي هاوياً. .

وعندما وصلنا بالعربة الجيب من مركز سمالوط إلى بحر يوسف لأول مرة، كانت المعدية الكبيرة تستعد للسير غرباً، أنزلوا لنا السقالة العريضة فعبرنا فوقها في حذر إلى سطح المعدية، بينما الفلاحون والفلاحات وريس المعدية ـ الربان ـ ينظرون لنا في فضول دهش واستغراب، وعدم تودد جعلنا نلتزم الصمت حتى الشط الغربي، حيث هبط الفلاحون أولاً بقففهم وبهائمهم وأقفاصهم، وتفرقوا متلكئين سيراً أو فوق الحمير. . ثم جاء دورنا في التعجب ونحن نرى عدداً كبيراً منهم يسرعون إلى سيارة كهل عتيقة وينحشرون فيها بمهارة فائقة، سبعة من الرجال البالغين وامرأتان وطفل عدا السائق، بينما وقف فوق الرفرفين أربعة آخرون، وتشعبط واحد على حاجز التصادم الخلفي، بينما المكتوب عليها: «أجرة سبعة راكب». . وعلى الرغم من هذه القسوة الآدمية فقد سارت تتهادى فوق الطريق الضيق في رصانة الشيوخ وقرقعة وصخب الشباب، من يسمعها وهو مغمض يظنها طائرة نفاثة تخترق حاجز الصوت، أو مكوك الفضاء يشق الغلاف الجوي عائداً إلى أمه الأرض!!

ثم هبطت عربتنا إلى البر، وأخذنا اتجاه الغرب. . أقل من دقيقة ولحقنا بالسيارة الكهل، أطلقنا منبه الصوت ليفسح سائقها لنا الطريق

فتجاهلنا، ألححنا وتمادى!!.. حتى شككنا أنهم يتعمدون تعطيلنا من خلفهم.. زدنا اقتراباً منها حتى خاف راكب التصادم فرفع قدميه في وجوهنا بحركة دفاعية غريزية، ثم رأينا فلاحاً يهبط منها ويجري صوب القرية، وبد وكأنه في عجلة من أمره إذ سرعان ما سبقنا واختفى!

لم ينظر أحد راكبيها إلينا في ود، فتأكد لدي أنهم يتعمدون تعطيلنا!!.. احمرت صلعة الألفي غيظاً، وأشعل توفيق سيجارة أخرى ثم قال موضحاً كل شيء:

ــ بهائم.

انفجرت فيه:

ــ عزيزي توفيق، ليسوا بهائم أو طيور، انهم فقط يستريبون فينا بسبب ملابسنا الصفراء.

حملق كالأبله.. قلت:

ــ واضح اننا أغراب وأننا من رجال الحكومة، ولم يحمل الغرباء لهم الخير أبداً، ومنذ القدم وربما منذ الفراعنة!

ــ من أخبرك بهذا، رمسيس الثاني؟؟

أشحت متأففاً.. سكت ثم عاد يتبرم:

ــ غير معقول أن نظل سائرين بإيقاع سيارتهم البطيء هذا!!

قلت مندهشاً من استخدامه كلمة «ايقاع»:

ــ عزيزي حاول أن تفهم، السرعة والبطء لا تعنيان شيئاً لديهم، حياتهم كلها انتظار رتيب، البذور تنبت بعد أيام والثمار يحصدونها بعد

شهور طويلة ليس فيها إلا العادي المألوف. . لهذا يتوجسون من كل جديد ويقلقون من كل غريب. .

التفت إلى الألفي ساخطاً:

ـ الحر والتراب والذباب، وسيصدعنا بكلام الكتب التي يقرأها!!

رددت في برود:

ـ القراءة هي الشيء الوحيد الذي يميز الإنسان عن الحيوان.

لم يمنع تراشقنا بالألفاظ سوى ظهور القرية بأكواخها المتضائلة، قرية كأي قرية مصرية أخرى اسمها «نجع الغروب» لوقوعها على حافة الوادي الغربية. . اسمها نجع الغروب ولقب عمدتها «غرباوي»!

عند نهاية الطريق الرديء السفلتة، وقرب ساحتها لفت نظرنا بيت العمدة ورأينا بعض الفلاحين متجمعين وبينهم ذلك الذي هبط من السيارة وجرى، سبقنا اذن لينذر العمدة غرباوي كي لا يفاجأ بقدومنا. . والمؤكد أن «حسن السبع» كان بينهم. .

لم نتوقف. . وبمجرد أن انزوت سيارتهم من أمامنا حتى انطلقنا مسرعين بايقاع سيارتنا الحديثة القوية. . وتحول الطريق بعد القرية من اسفلتي إلى طيني أسمر اللون ثم اختلطت الصفرة به، ثم انقلب إلى رملي. . وقرب تل الرمال المسمى بالجبل الغربي اضطررنا إلى السير على الأقدام. . وبسرعة أخذنا نعاين المكان ونضع العلامات ونطابقها على خرائطنا، ونأخذ عينات التربة في زجاجاتنا المعلمية. . عملنا في صمت والشمس من فوقنا ـ كما هي الآن ـ وكان كل شيء مقرفاً مرهقاً

فلم تنطفىء سجائر توفيق ولم يكف عن لعن أوامر التكليف التي ألقته إلى هذا المكان المليء بالرمال وبالطين وبالفلاحين وسيارتهم البطيئة . .

وطوال اليوم لم تنقطع زمجرة جمال البدو وقد وضعونا تحت المراقبة الدائمة، لعلهم ظنوا أننا كنا نبحث عن الذهب أو البترول أو الآثار . . وساعة الغداء فوجئت بفلاح يقف وحيداً ينظر لنا صامتاً، ضئيل الجسد تركت سوء التغذية على وجهه صفرة ونحافة، عرفت اسمه دون أن ينطق، كان الجلباب عند صدره مفتوحاً عن وشم أخضر لأسد ممسك في يده بسيف طويل، وتحته اسم صاحب الصدر: حسن السبع، بطاقة شخصية لا تبلى إلا بوفاة صاحبها ولا يمكن تزويرها فلماذا لا تعممها وزارة الداخلية؟! . . ضحكت وقلت:

ــ كيف حالك يا حسن يا سبع؟؟

تهلل وجهه . . أعطيته سندويتشاً تناوله في حياء فتشاغلت عنه بالنظر إلى النجع كي لا أزيد من حرجه فازداد عجبي : كانت القرية أسفلنا سوداء اللون إلا بيت العمدة المطلي بالجير الأبيض وبيت هذه السيدة الأعلى منه، والمطلة شرفته الفسيحة على هذا القبر الجالسة عليه الآن برصاصها وغبائها وضريرها!!

عند الغروب وبعد انتهاء مهمتنا الأولية دفعتنا رداءة الطريق إلى ابطاء السيارة، وكنا قرب هذا البيت، كانت ستائره السميكة مسدلة فجاءت على ذهني ملامح بيوت الأشباح التي نراها في أفلام الرعب، وكان الهواء يحرك هذه الستائر في خفوت رتيب مثيراً جواً من الغموض

والرهبة، ثم اذا بها تهتز فجأة عن شق ضيق أطلت منه نظرة كارهة قاسية من عينين واسعتين، هما عيني هذه الأرملة، سرعان ما اختفت بانسدال الستار فظننت أنني كنت واهماً . .

اهتزت السيارة ولما عدت أنظر رأيت الانفراجة تظهر من جديد، ولكن في نعومة هذه المرة، وتتسع ليطل منها وجه العذراء قمحية اللون «خمرية»، خيل لي أنها تنظر لي أنا بالذات، وظللت مشدوداً إليها حتى ابتعدت السيارة وحتى حال التراب المثار خلفنا دون رؤيتها. . وها هي الآن أمامي دامعة، لو بيدي إدخال السعادة إلى قلبها! لو أقدر على إعادة البسمة إلى شفتيها! . . غير أن أمها عنيدة متشبثة ببناء لا معنى له! . .

عندما عدنا جميعاً بعد شهرين دهش الفلاحون من آلاتنا ومعداتنا، لكنهم لم يقتربوا منا أبداً إلا حومان من بعيد وبدافع الفضول، حتى البيع لم يمارسوه معنا. . ظلوا في قريتهم ومكثنا في معسكرنا وراح البدو يراقبوننا من صحرائهم، ولم تكن الاحتكاكات قد بدأت بعد. . رغم أنني نبهت الألفي منذ البداية إلى ضرورة افهام الفلاحين والبدو بأن كل فدان نستصلحه سوف يوزع عليهم. . لكنه رفض هاتفاً:

ــ لقد ملوا الكلام ولن يقنعهم سوى النجاح!

بدا كما لو كان يحدثني من فوق منصة للخطابة، فسألته:

ــ من؟

وخاب ظني إذ أجاب قائلاً:

ــ الفلاحون.

ولم يقل: اخواننا الفلاحون. . والعجيب أن كل المديرين يتحدثون عن الفلاح حديث العارف، حتى الأثرياء الذين يمثلونهم في مجلس الشعب!! . . كنا نعرف أن زمام القرية كلها لا يزيد عن المائة فدان، منها ثمانين لهذه العجوز لوحدها. . ورغم عدم انطباق قانون تحديد الملكية عليها إلا أنها تعتبر اقطاعية لامتلاكها أربعة أخماس الزمام كله، والمقياس نسبي. .

ضحك الألفي ساخراً:

ـ لو عرف «اينشتين» انك سوف تطبق النسبية على لائحة اصلاح الأراضي لامتنع عن اكتشاف نظريته!!

محاولة للسخرية لابأس بها، لكن المؤكد أن هذه النسبة تجعل الفلاحين والبدو خاضعين لهذه السيدة. . خصوصاً مع تفشي الجهل، وأقرب مدرسة تقع بعيداً وعلى الجانب الآخر من بحر يوسف. .

لكن الألفي ـ ومنذ لقائي الثاني أو الثالث به ـ وهو يتهمني بحب الكلام، وباتقان العبارات الانشائية الرنانة التي تسحر البلهاء وتبلف السذج:

ـ مشكلتك لسانك وأظنه كان سبباً في متاعبك السابقة وسوف يكون السبب في مشاكلك اللاحقة!

وعلى أساس هذا الظن طالبني منذ قليل باستعمال بعض «كلامي المعسول» في اقناع هذه السيدة بالتراجع عن غيها، وطبعاً رفضت. . فهل حالتها تسمح لها بالاستجابة للمنطق والعقل؟! . . من المهم جداً

فهم لغة من تتعامل معهم، ومن قبلي استجداها الشابوري بلهجته البدوية ثم غرباوي العمدة ثم ابنتها دون جدوى! . . وان كنت أنا كثير الكلام وبالتالي قليل العمل فماذا سيقول هذا الألفي في تقريره الختامي عن المهندس توفيق الذي اختفى بعد أسبوعين والذي سيظل يمدد اجازاته المرضية حتى نهاية المشروع!! . .

ومن حق أي إنسان أن يتبرم من قسوة العمل هنا، أكلنا الطعام بالرمال وشربنا الماء الدلع كي نأتي بالماء العذب الذي يخصب هذه الأرض العذراء، والتي نفض الآن بكارتها لنخصبها وننبت الزرع بها. . ولكن ما معنى الآثار الفرعونية التي وجدناها أثناء الحفر؟؟ . . يقولون أن الفرعون مينا هو الذي حول النيل إلى مكانه الحالي، فهل كان الوادي القديم يمر من هنا؟

أظن أن الملل بدأ يتسرب إلى الفلاحين، فحتى الآن لم تقم العجوز بلعبتها الكبرى. . والتثاؤب يغلبني، انها الراحة بعد دوام النشاط، ومراحل المشروع حتى الآن كانت مرهقة، لكني أعترف بأن صحتي تحسنت بشكل رائع، وهو ما لاحظه الجميع أثناء إجازاتي العابرة بالمدينة. . ولما لا؟ . . كنا ننام مع غروب الشمس ونستيقظ مع شروقها، تماماً كالدجاج، لكني أعترف أن النوم عندما يأتي بعد يوم من العمل الشاق يكون نوماً عميقاً بلا أرق، أكاد أقول نوماً ممتعاً كالوجبة الشهية من بعد جوع وعطش. .

وعندما يستيقظ الإنسان مبكراً وهو فوق ربوة هذا التل الغربي، يجد لهواء الفجر لسعة لذيذة، ولشروق الشمس سحراً وجدانياً، فيسيطر عليه احساس صوفي يظل يلازمه حتى تصحو الكائنات من حوله ويعم الصخب والنزاع . . وفي ذلك الصباح المدهش، بعد أيام من بدء المشروع، كنت أواجه الشمس فرأيت فوق سطح هذه السيدة خيال فتاة رشيقة، يطاير الهواء ثوبها الهفهاف، وتداعب النسمات شعرها المنساب . . كانت «خمرية» تشاركني الفجر والشمس تصعد من خلفها مكونة من حولها هالة ملائكية، لكن هذه الهالة الملائكية جعلتني لا أراها إلا شبحاً، غير أنني خمنت كل التفاصيل إلى درجة أنه خيل لي أنني أرى صدرها بتنفسه الهادىء، وبأنني أرى شفتيها الرقيقتين تنفرجان في ابتسامة أخاذة . . ثم قويت الشمس فتبخر كل ذلك وسألت نفسي : هل تنظر لي أنا بالذات أم إلى الجبل ومنشآت المشروع وما أنا إلا كتلة ضئيلة فوقه؟! . . لوحت لها بيدي ولم تستجب!

كنت أفكر مثل مراهق يمارس أحلام اليقظة، ويبدو أن مدة الاعارة بالسعودية قد أذكت ملكات التخيل عندي، وفتحت صمامات التعقل لتنطلق الأوهام، حيث المجتمع رجالي وحيث المرأة تخرج في حجاب بقصد التحشم، يجهل الناظر إليها ان كانت جميلة أو دميمة، شابة أو عجوز، لكني كنت أحب تخيلها حسناء رائعة، كنت هناك محروماً من رؤية الوجوه السمحة الجميلة وقد اختبأت تحت الحجاب، لم أكن راغباً في احداهن ولم تتملكني الشهوة اذ كان قلبي ممتلئاً بزوجتي ـ التي كانت

وقتها حبيبتي ـ وانما كنت راغباً في كسر رتابة الـرؤية الـدائمة لـوجوه الرجال بالتطلع إلى وجه صبوح، كانت رغبة جمالية بحتة. . وأذكر عندما دعاني صديقي السعودي أحمد للغداء في منزله، أذكر أنني رأيت وجه أخته، وكانت حوراء العينين وذات جمال متميز وساحر، وأدهشتني بتنوع معلوماتها وبالعدد الهـائل من البـلاد التي زارتها، كـانت جلسة بـريئة أمضيت بعدها عدة أيام في مرح عجيب، أفكر في زوجتي واستحضرها بخيالي في أحلام يقظتي. . وذات ليل متأخر، وكنت قد فرغت تواً من كتابة خطاب مطول اليها، هبت النسمات اللطيفة فاسترخيت واسترخى خيالي وشطح، فإذا بي أسمع طرقات خفيفة على باب غرفتي، نهضت متعجباً وفتحت، لأجد امرأة محجبة تماماً، لا يبدو منها سوى العينين، لكن الثوب ينبىء عن قوام ممشوق، انزعجت في البداية وظننتها أخطأت المكان، لكنها أدهشتني بأن ضحكت ضحكة مشاغبة، ودفعتني ودخلت وأغلقت الباب من خلفها:

ـ ألا تعرفني؟!

زادت ربكتي، ثم اذا بها تواجهني مقتربة، وتدنو:

ـ ألا تعرف زوجتك؟!

ـ زوجتي في مصر

رفعت الحجاب بحركة بارعة:

ـ أفتقدك فجئت لأفاجئك

ـ مفاجأة العمر.

ورحبت بها واحتويتها في حضني، وبدأت معها الزواج. .

لكن كل ذلك كان حلم يقظة، ولكم أدمنت أحلام اليقظة، ولم أكن أعـرف وقتها أنهـا تعد لي مفـاجأة عمـري فعلاً، وانمـا على النقيض تماماً!!. . والعجيب أنني تخيلتها وقد جاءتني في الحجاب!. . لعله تأثير المكان والبيئة، ولو لم أذهب إلى السعودية لما خطرت على خيالي هذه الشطحات!. . وكم داعب خيالي غموض المرأة المحجبة، وذات مرة سليت نفسي بخيال بوليسي وتصورت احداهن مجرماً ذكراً يهرب من الشرطة متنكراً في هذا الزي!!. . وفي شهورنـا الأولى كنت وزملائي صـامدين، ثم نفـذ صبرنـا وضاقت صـدورنـا ورحنـا نتشـاجـر لأقـل الأسباب. . الحرمان من مألوف الحياة ونعمتها، الازدواجية والرطوبـة واختلاف الظاهر عن الباطن، وقسوة الجو وصرامته!!. . وما فائدة المال الوفير ان كان لا يشتري للانسان راحته؟!. . غير أنه ـ ومع تتابع الأيام وتماثلها رتابة وكتمـة ـ اختفى الخلاف والشجـار، أغلب الظن بـدافع الكسل أو الاستسلام وقسوة الحياة وقهرها. . آه من القهر!!

ومنذ شهرين رأيت عدداً من الفلاحين تحت سطوة القهر. . يومها لم يصعـد لنا أي واحـد ممن عملوا معنا، تقـدم الصباح ولم يـأت واحد منهم!!. . وكـان يوم إجـازتي وكنت في طريقي إلى «المنيـا»، وأثناء تـوجهي إلى «بحر يـوسف» أدركت السبب، كان مـوسم القطن وكـان الرجال منهمكين في جنيه من أرض هذه العجوز وأرض غرباوي العمدة مدمن العذارى، نظروا لي في مذلة بينما البدو يراقبـونهم بالبنـادق. .

وشعرت بالقهر مثلهم وكنت أعرف أنني لو أبلغت شرطة المركز فسوف ينكر الفلاحون وقوع أي ضغط عليهم خوفاً على حياتهم، وأكون أنا قد أزعجت السلطات ببلاغ كاذب!!.. وقد أتهم بالانتماء لاتجاهات سياسية معينة، وعلى أحسن الافتراضات قد أواجه بالحكمة الخالدة: يا داخل بين البصلة وقشرتها!

كأنهم مماليك السلطان هؤلاء البدو، هم أرباب السلاح وعلى الفلاحين عناء العمل والزرع والجني بأقل ثواب رغم أنهم الأغلبية!!.. أما السلطان هنا فهو غرباوي العمدة وتشاركه السلطنة هذه المعتوهة التي ترمق الآن شاهد القبر في تعبد، هل إلى هذا الحد كانت تحب المرحوم؟!.. وهل لابنتها خمرية طبعها ودوام عواطفها؟!.. وهل ان أحبت صانت العهد مثلها؟!.. لكن «صانت العهد» هذه عبارة سخيفة استهلكتها الأغاني والأفلام لدينا..

في نفس يوم المماليك رأيت السيارة الكهل متوجهة إلى بحر يوسف بنفر واحد فقط، تعجبت وحاذيتها لأكتشف أن الراكب الأوحد هي خمرية، ابتسمت لها فحملقت بدهشة زينتها البسمة، ثم يبدو أنها تذكرت فجأة تقاليد الصعيد فتجهمت وأشاحت.. لكني مع صعودنا إلى المعدية عاودتني شقاوة الجامعة فرحت أحاصرها بالنظرات وهي تراوغ في غير اتقان، وكلما التقت العيون احمر وجهها وارتبكت وتصنعت عدم الاهتمام، حتى وصلنا البر الشرقي.. وفي محطة «سمالوط» تجاهلتني عمداً، لكنها في القطار ابتسمت فحادثتها، ورأيتها عن قرب جميلة رائعة

وصغيرة، وكانت متوجهة إلى المنيا لشراء بعض الملابس. . وبعد أن ساعدتها في اختيار الألوان كان متبقياً على قطار عودتها حوالي الأربعة ساعات، فدعوتها إلى الغداء معي في بيت الأسرة، كنت أجاملها لا أكثر متوقعاً اعتذارها، فاذا بوجهها يمتقع وقد علاه الغضب. . فوجدت نفسي أسارع بالتوضيح:

ـ لا تسيئي فهمي من فضلك، أمي بالبيت وسيعجبك طعامها!

حل التردد مكان الغضب، فقلت:

ـ أمي طيبة وسترحب بك، وستحبينها من أول نظرة.

أخفضت عينيها توافق بوجه محمر. . فارتبكت أنا، وسرت إلى جوارها وقد تملكني سؤال خبيث وغبي: أهي تصدق أنني أسكن حقاً مع والدتي؟!

أفهمت أمي أنها زميلتي طبيبة المشروع، ففرحت بها وأولمتها، وظلت تحاصرها بالأسئلة المتلاحقة عن أسرتها وفصلها وأصلها حتى جاء موعد القطار. . وفي الليل قبل أن تنام قالت أمي:

ـ كنت سأطلب منها دواء للمرارة التي تلازم فمي منذ طلاقك من الخائنة الغادرة. .

ـ أحسنت بعدم الطلب. .

ـ لماذا؟؟

ـ لأنها لا تفهم شيئاً في الطب. .

ـ ألم تقل أنها طبيبة؟!..

ـ نعم.. نعم.. لكنها صغيرة حديثة التخرج، قليلة الخبرة..

أطرقت ثم قالت:

ـ تبدو طيبة، جميلة وطيبة ومن أسرة مستورة..

ـ صحيح..

ـ فلماذا لا تتزوجها؟؟

ـ كيف يا أمي وعمري ضعف عمرها؟!

ـ كان عمر والدك ضعف عمري وقد أسعدني كثيراً..

ـ لكنه تركك صغيرة ورحل!!

ـ هذا أمر الله.

أدركت من تفكيرها مدى حماقتي التي ارتكبتها مع الفتاة الطيبة، لابد أنها فكرت بنفس الأسلوب!!.. أحسست بالخجل من نفسي وقد تصرفت كالأحمق المتصابي!!.. وعاهدت نفسي على تجنبها في لباقة ودون اساءة لمشاعرها.. لكن ماذا أقول: كانت هي أول فتاة أصادفها في أول إجازة لي بعيداً عن الرمال والخيام والأكل الجاف!!

لكن العجيب أنني بالليل حلمت بها في ملابس الزفاف، وكانت باسمة فاتنة، وكانت أمي سعيدة تزغرد.. ثم سرعان ما تشابكت صورتها بصورة سوسن الطبيبة، وصارت العروس مزيجاً من الاثنين!.. تريد أمي أن تزوجني بأية وسيلة، دائماً تردد بأن فشلي في الزيجة الأولى لا يعني أن كل الزوجات سيئات، الغالبية طيبات مخلصات وفيات...

ويبدو أن هذا صحيح، والدليل عليه عجوز القبر هذه، المؤكد أنها تزوجت رجلها طبقاً لتقاليد عصرها ودون أن تراه، ثم تسرب حبه إلى قلبها مع طول العشرة، حتى صارت لا تستطيع الحياة بدونه، فلما مات استعاضت عنه بقبره، فان أزيل فكيف ومع من تعيش؟؟ انها مصابة بداء الفكرة الثابتة، استعاضت عن الواقع بالوهم وليتها تعرف كم تخدعنا الأوهام!!.. في شتى المجالات تكون النظرية أجمل وأروع منها عند التطبيق، النظرية حلم يحلق فيه الخيال بالمقاييس المجردة والأمنيات، لكن التطبيق واقع يشوبه قصور البشر والنوازع والاطماع.. كانت لي الزوجة الجميلة الأنيقة، وكانت لي معها أحلام وأماني، أن نسعد معاً، أن ننسج قصة حب رائعة.. ثم اكتشفنا أن المال ينقصنا، واكتشفت أنا أن مطالبها كثيرة، فتغربت إلى أرض الرمال الحارقة، أجمع المال من أجلها، لكنها لم تصمد، تعرفت في غيبتي على الثراء ممثلاً في رجل غني وأرسلت تطلب الطلاق دون أية مطالب، كانت صريحة واضحة، فحمدت لها هذا، ورأت نجوم الصحراء دموعي، واستجبت في هدوء لرغبتها، مادامت تتركني فهي لا تحبني، وأنا أريد الحب.. وطلقت زوجتي العذراء!!.. ولم أكن قد دخلت بها بعد!

والآن أظن أن هذه العجوز ليست مجنونة، انها امرأة تحب.. فهل يفسر هذا كل شيء؟؟ وهل يدخل الحب ضمن أمراض الفكرة الثابتة؟؟.. على كل حال يجب أن ننقذها من أجل خمرية، أليست ابنتها الحية أولى من زوجها الميت؟!.. فكيف ننقذها والبندقية في يدها

والباقي من الزمن على فتح المياه حوالي الثلاث ساعات؟!

ان كانت تفعل ذلك وفاء لزوجها فواجب علينا أن نقيم لها تمثالاً نصفياً. . لو كان لزوجتي ذرة واحدة من وفاء هـذه السيدة لكنت الآن أسعد الأزواج. . وعجيب أمره معي ذلك الحب، بعد الانفصال خلت أن ملكة الحب عندي قد خبت تماماً، وأنني لم أعد بقادر على حب أية امرأة أخرى مهما كانت الظروف. . لكنهم يقولون بأن الحياة تمضي، وهذا قول حق. . في وقت ما ظننت أنني أحب خمرية الطيبة الصغيرة، وفي أوقات أخرى توهمت حبي لسوسن، ربما بحكم كونها المرأة الوحيدة في المعسكر. . لكنها بالطبع تختلف تماماً عن خمرية، من الممكن لسوسن الطبيبة الناضجة أن تكون حبيبة وصديقة في نفس الوقت، وربما زوجة. . ولكن أمعقول أن أجربه ثانية؟!. . أشعر أنها تطاردني بنظراتها الآن. . انها فعلاً تنظر لي، تبتسم، قريبة هي من قلبي، المؤكد أن احتمالات حبها قائمة. . ولكن كيف يصل انسان مثلي إلى سن الأربعين ويظل حائراً إزاء عواطفه؟؟. . في هذه العمر يجب أن يتدخل العقل في أهواء القلب. .

ما أعجب عواطف الإنسان؟!. . انها لا تعرف الحدود ولا الزمان أو المكان، ولا تعترف بالأعمار أو الطبقات أو اختلاف اللهجات والأزياء!!. . هذا النجع مثلاً، لا يزيد عن كونه بقعة منزوية في أقصى غرب الوادي، لكنها مليئة بالمشاعر والأحاسيس والقصص والمآسي، آخرها ما حدث بالأمس. . للعاشق الأكبر ـ حسن السبع ـ الذي كان حبه

عارماً متأججاً؟؟.. والذي أحب زكية وكتب اسمها فوق جراره، ثم فجع فيها، تزوجها ليلة الأمس وفجع فيها ليلة الأمس، وكانت صدمته مضاعفة فهام وبكى وانهار..

رأيته منذ قليل آتياً من جهة المعسكر، تأخر في النوم بفعل المخدر الذي حقنته به سوسن ليلة أمس، كان لابد أن ينام كي يستريح وينسى في ساعات الغيبوبة صدمته..

حسن العاشق المجروح، كسير الفؤاد..

حسن، أيها السبع الطيب، يا من صدمت في حبك فكانت ليلة زفافك ليلة فجيعتك!!.. يا من صرت رفيقي في دروب الأحزان، كم تمزق قلبي من أجلك!!

* * *

الفصل الثاني

عذراء الغروب



الساعة ١٧, ٢ بعد الظهر

بعض الأشجان المتفرقة لكسير الفؤاد.

سائق الجرار/حسن السبع (٢٢ عاماً)

الصداع، والجميع هنا. . كم الساعة الآن؟ . . في الرابعة ستجري المياه إلى هذا المأخذ. . والصداع يفتك برأسي، البدو والفلاحون، والهانم فوق القبر مع عم علي الضرير، لماذا؟!. . وكيف جاءني النوم بعد مصيبة الأمس؟!. . والألفي بك هنا أيضاً والطبيبة والمهندس سامي وباقي المهندسين. . عدت إلى المعسكر ليلة أمس بالفجيعة في قلبي، وبكيت في حضن المهندس سامي ونهنهت كالطفل، ثم جاءت الطبيبة بالحقنة، فنمت، وما كنت أظن أنني سأنام، لابد أن المخدر بالحقنة كان أقوى من فجيعتي. . الصداع، والجميع هنا، حتى العمدة، غرباوي الكلب هاتك العروض!. . مع الفجر نمت ومنذ قليل صحوت لأجد المعسكر خالياً، وتذكرت زكية، زوجتي الشرعية!!

والجميع هنا، وما زلت في رأيهم السبع العبيط!!. . وحتى زكية نفسها وإلى زفاف الأمس كانت تظن أنني السبع العبيط!! ـ رغم أنني تعلمت قيادة جرار لا يعرف أي فلاح كيف يجلس فوقه ـ ورأيت الدماء في صدرها!!. . في صدرها!!. . الصداع!!

لو أعرف السبب!! . . لماذا أنا من بين جميع الفلاحين أطلقوا عليَّ هذا الأسم؟! . . ألأنني مقطوع من شجرة، لا أب ولا أم ولا أهل؟! . . أم هل بسبب السبع الممسك سيفاً والموشوم فوق صدري مع إسمي؟! . . لكن الحاج عبد السميع له وشم السبع فوق ظهر كفه، والشيخ أحمد له وشم عصفورة فوق كل صدغ، وعبد السيد له وشم صليب فوق رسغه، ومعظم النسوة لهن ثلاث خطوط موشومة فوق الذقن، وجميع البدويات الوشم فوق شفاهن. . فلماذا أنا من دونهم جميعاً إختصوني بهذا الوصف؟!

ألأنني كنت أفقرهم؟! . . أم بسبب تسامحي؟! . . كان إذا شتمني فلاح قلت له: «الله يسامحك». . ومرة دفعني حسان من طريقه بعنف فسقطت على الأرض وضحك العيال، وبحثت عن طوبة كبيرة أخبطه بها في أم رأسه وأبطحه، لكني قلت لنفسي: «يا حسن أخزي الشيطان، يا حسن لا تطاوع شيطانك» وألقيت بالحجارة وقلت له «الله يسامحك» وضحك العيال مع أن المسامح كريم!!

أما الآن فإنني لا أقدر على نطقها، وهل أسامح العمدة الفاجر. . لن أقول «الله يسامحك» بعد الآن وبعد أن رأيت الدم في صدرها!! . . في صدرها!! . . وكان الغرباوي هو الوحيد الذي يضربني على قفاي ولا أرد فهو أكبر مقام في البلد ـ كان ذلك قبل المشروع ـ وهو الذي كان يطعمني وأعمل عنده من حين لآخر، وتعمل عنده زكية. . وبسببها كنت لا أنتقل من الساحة، وأظل جالساً بجوار «حواش» النجار وهو يصنع

سواقيه، فإذا خرجت سرت من خلفها، وأمـام كل النـاس وتحت عين الشـمس كنت أحادثها:

ــ كيف الحال يا زكية؟؟

لم تكن ترد، وظننتها تريد التأكد من شريف قصدي، فقلت:

ــ أتتزوجيني يا زكية؟؟

وكنت عبيطاً بالفعل، صرخت في وجهي آخر مرة:

ــ أبعد عني يا عبيط.

وإلتفت النسوة من حولي يهزأن، وزغردت واحدة زغرودة طـويلة مسحوبة كصريخ العرسة في سكون الليل:

ــ السبع خطب زكية. . يا سعدك يا زكية جاءك عريس الهنا، عاطل وعدمان. . كن كالغربان من حولي، نعقن نعقن:

كن كالغربان من حولي، نعقن نعقن:

ــ من غير دار لا يكون الرجل سبعاً. .

ونعقن:

ــ من غير فلوس يكون الرجل قرداً مسخوطاً. .

وكرهتهن وكرهت ملابسهن السوداء ووجـوههن الجائعـة، ودرت خفيض الـرأس ودارت الأرض، ورأيت التراب يتحـرك كمياه التـرعـة، وإنهرت بجوار حواش الطيب، ترك ساقيته وقدم لي كوب الشاي الذي كـان يشـربـه، لكني دفنت رأسي في حجـري، ربت على كتـفي

فبكيت. . . وبالأمس فوق السرير كانت مرتبكة، حايلتها وداعبتها فإبتسمت، ثم عادت لسكوتها وإنخطف لونها، وكنت مرتبكاً وتمنيت لو ساعدتني، لو إندمجت معي لو مازحتني. . وبعد الممانعة دخلت تحت الغطاء ودخلت معها، ورفعت ثوبها حتى صدرها، ورفضت أن تخلعه وتصلب كفاها فوق نهديها، قلت خجل الصبايا والتصقت بجسدها الناعم الساخن، كانت نشوة لم أشعر بها في حياتي، شفتاها لذيذتان لكنهما ترتعشان، فجأة همست:

ــ حسن!!

ــ يا روح حسن

إنتظرت أن تقول شيئاً فلم تقل ـ لعلها كانت ستخبرني، لو فعلت لأختلف الحال، كنت سأغضب لكني كنت سأفهم وأقدر عذرها والمسامح كريم ـ كان وجهها في صفرة الكركم وأبعدت نظراتها عني دائماً. . وآه من الصداع ـ وكان الدم في صدرها!! ـ الصداع والدق في رأسي. .

الألفي بك ينادي على سائق الحفار، يصرخ؛

ــ قل للمخرج أن لا يصور ما يحدث، هذا ليس في المشروع

لا يضحك أبداً، لكنه طيب القلب. . ويوم إن جاءت عربتهم الأولى وقفت مع الناس عند الطريق ننتظر، لم تقف ومرقت من أمامنا إلى الجبل، جفلت البهائم من سرعتها وجرى البط مذعوراً، وتصنمنا نحن

من العجب!!.. كانوا أغراباً ـ الآن هم أهلي ـ وإحترنا: ماذا يريد الأغراب من الجبل؟؟

ظنهم الأسطى صابر من رجال المساحة شأن الذين جاءوا عام أول إلى أرض عبد السيد ودقوا علامات الحديد مخرجين منها شريطاً طويلاً وقالوا له: «هذه المساحة لا تدخل ضمن أرضك، إنها «حق الميري»..

ــ أي ميري يا ناس؟!

ــ الحكومة.

ــ كانت رمال وزرعتها ولم تكن ملكاً لأحد.

وتدخلنا جميعاً لأجل خاطر عبد السيد، لكنهم لم يردوا وتركونا ومضوا، وظل يزرع الأرض!

كان غرباوي الفاجر في عجب مثلنا، وكان في ضيق وقال:

ــ الألعن من رجال المساحة ضباط الشرطة ووكلاء النيابة، وكله على دماغي، أقفاص الطيور وصفائح الجبن والزبد، والثمن: متشكرين يا عمدة!!

وأفتى ولد من مدرسة سمالوط بأنهم رجال آثارات، وبأن خواجات كثيرون سوف يفدون على نجعنا. وعلى الفور أمرني غرباوي فأسرعت إلى الجبل وأنا أقول: الخواجات فلوسهم كثيرة وأيديهم سخية ويشترون رمماً ونقوشاً قديمة وأشياء لا قيمة لها بأسعار غالية..

وصلت عندهم متعباً، كانت خطواتي تغرز في الرمال فتعبت..

وكان البدو يراقبون المهندسين وهم يفحصون الأرض، وكان المهندس توفيق يدخن سجائر لم أر لطولها مثيلاً. . والمهندس سامي يعبيء زجاجاته بالرمال، وكنت يومها عبيطاً إذ ظننت أن هذه الرمال تباع عندهم بثمن غال؟! . . وساعة الغداء قدم لي سندويتشاً، وراح يسألني عن كل كبيرة وصغيرة بالنجع، عن بيت الهانم والعمدة وعن هذا القبر العالي وصاحبه وإبنته خمرية . .

وقبل الغروب جمعوا حوائجهم وأنزلوني بعربتهم إلى الساحة وساروا عائدين شرقاً. . لأجد الناس يأخذونني إلى دار غرباوي، كي أروي لهم ما رأيت، ولأول مرة في حياتي أحسست أنني أعرف ما لا يعرفونه، وسألوني:

ــ من هؤلاء الغرباء؟؟

ــ ناس

نهرني غرباوي:

ــ يا ولد أعقل وتكلم

ــ مهندسون

ــ ري؟؟

إحترت:

ــ مهندسون

ــ وماذا كانوا يفعلون طوال النهار؟؟

ــ كانوا يملأون زجاجاتهم بالرمال

هاج العمدة:

ـ يا ولد تكلم جد.. كل هؤلاء الرجال يأتون من أجل الرمال؟؟

ـ هذا ما فعلوه يا عمدة ورحمة أبوك

ـ لا تذكر أبي على لسانك الزفر!!

ـ وقالوا أنهم عائدون بعد شهر

ـ ليملأوا زجاجاتهم بالرمل؟!

ـ ليزرعوا الجبل

وجاءت زكية بالشاي، وعتب الأسطى صابر على العمدة:

ـ ألم تجد غير حسن لترسله يا عمدة؟!

كان يتهكم، وسمعته زكية، إغتظت وصحت:

ـ وسوف أعمل عندهم وأترك نجع الشحاذين هذا

ضحكوا وضحكت زكية فزاد غيظي:

ـ وسأعمل عندهم سائقاً..

فزاد ضحك الأسطى صابر حتى سعل.. وعملوا من كلامي مضحكة أسبوعاً كاملاً، وإستمر الأسطى صابر إسبوعاً ثانياً يناديني ساخراً: «يا سبع الأسطوات، يا إسطى السبوع».. وفي الأسبوع الثالث قالوا:

ـ تخاريف عبيط!!

وفي الرابع نسوا الموضوع من أصله.. ومر الشهر ولم يأت أحداً، حزنت وقلت ضحكوا الأغراب مني أيضاً، حتى الأفندية؟؟

لكنهم جاءوا.. سرب طويل، كقطار البضاعة الطويل.. وكان منظرهم يشرح الصدر: جرارات وسيارات وعربات نقل محملة بالأخشاب والأسمنت والحديد وآلات عديدة.. ثم بدأت الماكينات تدور، فنظر كل الناس صوب الجبل، حتى الهانم، حتى البهائم كانت تتوقف عن مضغ البرسيم وتميل بآذانها إلى الصوت.. ولم يصعد أي واحد إلى هناك، خافوا ومنعت الأمهات الأولاد من الذهاب.. وكنت أنا أول من عمل معهم، وكانوا عند كلمتهم فعلموني القيادة، وبعد أيام لحقني «حواش» النجار.

صعدت إليهم حافياً بالطين في قدمي، بجلباب ممزق، لا أعرف سوى البهائم والذباب والطيور والفأس، فعرفت «الموتور والدبرياش وفتيس الغرز».. أول مرة قدت الجرار فيها لوحدي شعرت بأن القيامة قائمة، فلما لم تقم تمنيت لو رأتني زكية، وسمعت في أذني زغاريد السعد والأفراح، حتى الجلابية ألقيتها، كانت أطرافها تتشابك في أي بروز وكان هذا يربكني، وذات مرة إنهمكت في تخليص طرفها من أحد المسامير فأنحرف الديركسيون وكدت انقلب بجراري من فوق الجبل، فلبست البنطلون الأصفر مثلهم، وفي بداية سيري به شعرت كأنني عاري، لكن كل شيء بالعلام والتعود.. تباهيت على الأسطى صابر وسيارته الكهنة وقلت:

ـ سائق الجرار يعرف قيادة أي سيارة، أما سائق التاكسي فصعب عليه قيادة الجرار!!

بصق على الأرض وقال:

ـ إنقلب حال الزمان!!

الصـداع، دماغي تـدق.. ولما رأى المهنـدس سامي «حواش» النجار يكتب أسم زكية على جراري، ضحك طويلاً:

ـ لماذا لا توشمه على صدرك أيضاً؟؟

خجلت وقلت:

ـ قد أفعل هذا

وكنت عبيطاً ـ الصداع ـ قال:

ـ لا تنس أيضاً وشم رقم رخصة القيادة!

ولم أزعل منه، إنه يضاحكني ولا يهزأ بي مثل أهل القرية، أعرف أنه يحبني، وأنا أحبه كثيراً، طيب لكنه حزين، وضع يده على كتفي ونقل الموضوع من زكية إلى سيرة خمرية إبنة الهانم.. ثالث مرة يسألني عنها فلماذا؟؟.. هل يطمح في زواجها؟؟ وإن كان يريدها فلماذا لا يدخل البيوت من أبوابها ويكلم الهانم؟؟.. إن كان ابن أصول ومن عائلة ميسورة فستوافق عليه.. وافقت زكية على الزواج مني عندما عرفت أن مـرتبي الشهري يزيد على مكسب حول كـامل لأي فـلاح.. الفلوس، ولولا عوزها للفلوس لما هتكها غرباوي العمدة، أذكر نظراته لي وهو يراني مرتدياً «العفريتة» وأقود الجرار بحرفنة بارعـة، كادت عينـه تخرج من وجهه، وتعمدت أنا الأقتراب منه كثيراً حتى يقرأ أسم الجرار، وقلت له دون إهتمام:

ــ كيف الحال يا عمدة؟؟

فصاح:

ــ ولد يا سبع

ــ الأسطى حسن يا عمدة، إسمي الأسطى حسن

وهتف المهندس سامي يشجعني:

ــ عظيم يا حسن، يا إسطى حسن

وإبتعدت وأنا أعرف أن الجرار يثير التراب في وجه غرباوي الكلب، شاعراً بأنني فعلاً «أسطى السبوع وسبع الأسطوات». .

كان ذلك نهار اليوم السابق على ليلة الجمال، جاء ليقابل الألفي بك ـ مع أن الألفي إحتقره ولم يزره زيارة المجاملة الواجبة ـ وكان يريد أن ننقل هذا المأخذ من مكانه بحيث يبتعد عن قبر المرحوم، فحملق الألفي بك وقال:

ــ هل تعرف كم ألفاً من الجنيهات يكلفنا طلبك هذا؟!.. وكم من الوقت يبدد؟!

لم ينطق العجل.. وقال الألفي:

ــ ومن أجل أي شيء؟!.. هذا كلام مجانين يا عمدة، ولن نعطل مشروعاً يفيد كل الناس من أجل ميت؟!

ومشى غرباوي وقفاه في لون عرف الديك الرومي.. وفي غروب نفس اليوم إستخرت الله وإنتظرت زكية أمام داره، ولما خرجت ورأتني

تعجبت، كانت جميع ملابسي جديدة. . وهذه المرة تقدمت منها جسوراً:

ــ زكية!

نظرت وحملقت:

ــ حسن؟!

كان صوت إسمي على لسانها جميلاً. . لو لم ترد، لو زجرتني كما كانت تفعل دائماً لما حدث كل ما وقع!!

سرت معها بين الفلاحات فالتوت أعناقهن دهشة. . سألتها:

ــ أتتزوجيني يا زكية؟؟

إبتسمت في حياء:

ــ الرأي رأي أخويا وأمي

تركتها وأنا أحملق في عيون النسوة، إن كان السبع سبعاً بماله فأنا سبع السبوع. . ولم أكن أعرف ما في بطن الغيب!

ووافقت أمها ووافق أخوها وإشتريت شبكتها من سمالوط، وقال حواش إنه سيصنع لنا الجهاز. . وظلت هي تحيرني من يومها، بشحوبها وحزنها وهمها. . والآن فقط أعرف السبب: غرباوي الكلب، ولم يستنكف ولم يستح وحضر حفل الزفاف!

وليلة الأمس ـ ليلة الفرح ـ نزلت العربات والجرارات من موقع العمل، ودارت حول القرية سبع دورات مضيئة كشافاتها ومدوية

زماميرها. . تجمعت القرية وجميع البدو، وكانت زفة ولا زفة أولاد الأكابر لم تحدث مثلها لأي فلاح في كل الغروب. . زكية في العربة الجيب الأولى مع أمها التي لم تكف عن الزغاريد تكاد تطير من الفرحة، وأنا في الجرار الذي يحمل إسمها مع الألفي بك شخصياً وحضرة المهندس سامي. . وكان الألفي باسماً طوال الوقت وكنت أظنه لا يضحك، ونقطاني بنقوط كبير، وأحسست بهما الأب والأخ. .

وفي الفرح جاء غرباوي ودفع جنيهاً بحاله نقطة للغازية:

ــ تحية للعريس

لي عريس الغفلة!!

ــ وللعروس وأمها

وأمها أيضاً؟!. . الزاني!!

وتحت الغطاء إحتضنتها وقد فار جسدي، قاومتني بشدة ثم إستسلمت تماماً وإسترخى جسدها بلا حراك، أرفعها ترتفع، أدفعها يميناً ويساراً إلى أي ناحية فيستجيب جسدها، مثل النعجة العليلة، وكان تنفسها سريعاً ساخناً. . وكنت أسمع أصوات أمها وأخيها خارج الغرفة، في إنتظار العلامة، الدماء الحمراء، منديل العفة. .

جامعتها وإنتهيت، ثم تنبهت إليها تبكي في صمت وبحرقة!!. . هل آلمتها؟!

قالت:

ــ إرحمني. . دار على عرضي

لم تكن هنـاك دماء!!.. ولـو لم تتكلم لما لاحـظت.. شعـرت بالدوار وسمعتها تقول:

ــ ينوبك ثواب لا تفضحني!!

ماتت كل فرحتي، إسودت الـدنيا في عيني: لم تقبلني إلا لهـذا السبب!!.. حملقت فيهـا، فتراجعت إلى الحـائط وهي تنزل ثـوبها لتغطي بطنها وساقيها.. من عبث فيها قبلي؟!.. ثم رأيت اللون الأحمر في صدرها!!.. دماء العفة في صدرها!!.. مددت يدي مهتاجاً: ما هـذا؟!.. وأخرجت من صـدرها الكيس الصغيـر المملوء بـالسـائـل الأحمـر، إنفقـأ في صـدرهـا وأنـا أحتضنهـا في حضني حبـاً ورغبـة وصدقاً!!.. إنفقأ في صدرها وكانت تنوي أن تفقأه بين فخـذيها!!.. الغشاشة اللئيمة النصابة، كانت ستضحك على ذقني بدماء الأرنب!!.. بنت الزانية تستغفلني أنا.. حسن، السبع العبيط، والعبيط لن يعرف الفرق بين العذراء والمرأة، وكانت ستحيل على اللعبة لأني كنت أثق..

حسن العبيط ودارت الدنيا، عبيط السبوع وشعرت بنفسي أختنق.. سبع البلهاء وتباعدت دقاق القلب وثقل جسدي، وإرتفعت الدماء إلى نافوخي.. وسمعت صوتي يعلو مبحوحاً كأنه قادم من تحت الأرض، وشعرت برأسي تخبط عمود السرير، ولعلها إرتعبت فصـرخت وإنفتح الباب ودخلت أمها ودخل أخوها، وكنت عاريـاً وكان العـار يغطيني، وجرت أمها إلى السـرير وتحسست الفـرشة البيضـاء ولم تجد الـدماء فأنهارت مسنودة إلى الحائط، وأمسك أخوها بالكيس المفقوء ولم ينطق،

ثم رأى عربي فألبسني جلابية الدخلة، وقال:

ـ إهدأ

يا عبيط يا عبيط، جاءت على لساني كل الشتائم لكنها لم تخرج فقد خنقتني غصة البكاء.. وسمعته يتكلم، وأظنه طلب مني أن أدعها على ذمتي شهراً واحداً وأطلقها بعده:

ـ صن عرضنا أمام الناس ولن نطالبك بالنفقة أو أي قرش..

وقبلت أمها يدي متوسلة:

ـ وسنرد لك الشبكة وكل قرش أنفقته!

ثم قامت وإنهالت نهشاً وعضاً وتلطيشاً في إبنتها.. وصرخت الفاجر:

ـ إقتلوني إقتلوني.. خلصوني من همي..

رجاني أخوها ذليلاً:

ـ حسن

يا سبع يا عبيط، للغرباوي حق عندما كان يضربني على قفاي..

وقبلت أمها يدي ـ مسكينة ـ فهل كانت تعرف؟؟.. لعلها هي التي أحضرت الكيس وملأته بدم الأرنب، هذه ألاعيب العجائز، لعل غرباوي نالها أيضاً في صغرها!!

خرجت إلى الليل الأسود، مرعوشاً مقهوراً، فسكتت الكلاب فجأة

ثم عادت تنبح . . وجريت إلى الخلاء، وشعرت بأمها تتبعني متوسلة أن أعود، قالت:

ــ نقتلها ونتخلص من عارها . .

فرفعت كفي ألطمها . . وصاحت تستجدي:

ــ نقتلها ونغسل عارنا

فدفعتها عني لتقع وتلطخ وجهها بالطين . . وذهبت إليه في دواره، وكان مع ثلاثة من خدمه، ركن الجوزة وقال:

ــ لم أقربها . .

ــ كذب

ــ لم أمسسها ويشهد الله

رائحة الحشيش:

ــ فاجر

نبح كلب من كلابه:

ــ إخرس يا ولد

قال غرباوي:

ــ عاملتها كأبنتي، يشهد الله

قال الكلب الثاني:

ــ البلد مليئة بالرجال، وزكية لعوب زائغة العينين

سحب غرباوي نفساً من جوزة الحشيش وكتمه، وتحفز نحوي كلبه الأول، ونصحني بالعودة إلى البيت ورأسي مرفوع:

ــ ولا من شاف ولا من دري!!

خرجت أسبه، الزاني ابن الزانية.. يريدني مرفوع الرأس أمام الناس بالزور، فماذا بيني وبين نفسي؟!

خرجت إلى الحواري، كرهت النجع كله ورائحته ونباح كلابه ونقيق ضفادعه، وطينه، وهرولت إلى الرمال.. وصعدت قدماي الجبل، مشيت وقتاً طويلاً، إنكفأت مراراً.. وعدت إلى بيتي الحقيقي، المعسكر وهل لي مكان غيره؟!.. ورأيت النوم والهدوء في كل مكان، فأرتميت على الرمال، ثم رأيت من بين دموعي سيجارته تشتعل..

كان المهندس سامي سهراناً وحيداً، كثيراً ما يسهر وحيداً مع همومه التي لا يتحدث عنها، بداخله حزن كبير.. أحبه وأحب عطفه، والآن أحبه وأشعر بأحزانه، أهي بسبب إمرأة أيضاً؟!..

رآني فأندهش:

ــ حسن ماذا تفعل هنا؟!

تعثرت ناحيته. نهض مقترباً:

ــ كيف يترك العريس عروسه؟!

دنوت منه جاهشاً.. هتف:

ــ وفي ليلة الدخلة؟؟

إرتميت باكياً في حضنه، لا أعرف ماذا قلت أو ماذا فعلت.. وترنح

جسده حزناً من حزني ، صرت رفيقه في وادي الأحزان ، ومن من أبناء آدم خالياً؟؟ . . وجاءت الطبيبة بابرتها، ووخـزتني ولم أشعر، وهـل يشعر الميت بطعن السكين؟ ؟ !

وها هو يجلس الآن ـ وحيداً أيضاً ـ فوق كرم الرمال، يـرقب كل شيء في هدوء . . أنه يرمقني أيضاً، أشعر بحنانه . . ثم تنتقل عيناه إلى الكلب غـربـاوي . . لا أرى زكيـة هنـا، ولا أمهـا ولا أخـاهـا، وهـل يجسران؟ ! . .

وفي يوم قريب سأقتل هذا العمدة، ولو كانت عنده ابنة بكر لهتكت عرضها حتى أذيقه طعم المرار الذي في فمي . .

الصداع ! ! . . كم الساعة الآن؟ !

* * *

الفصل الثالث

عذراء الغروب



الساعة ٣٠, ٢ بعد الظهر

هواجس عابرة لجامد القلب وهاتك العذارى،

عمدة نجع الغروب/غرباوي (٥٣ عاماً)

ولكن ما ذنبي إذا كنت أحبهن بكاري؟!

مزاجي أن أفض غشاء البكر، وينزل الدم، وترتجف من تحتي، تقاومني خائفة مرتعبة وأحتضنها مؤكداً قوتي حتى تضعف ثم تتشبث، وأتلذذ منتصراً. . لا تنسى المرأة رجلها الأول. .

ما زالت عندي القوة والصحة والجاه، فلماذا أكتفي بواحدة ولكل واحدة طعم خاص؟!. . متعتي أن أكون الأول فتكون طبيعية، شهقة أكيدة، وأنة صادقة، وفي النهاية أجد تحت مني إمرأة كانت منذ قليل بكراً، مستكينة والدم في الوجه كالورد النادي، والعينان مسبلتان في عرفان المنتشي. . لكنها سرعان ما تفيق ليركبها القلق والخوف فتصبح في أحلى جمالها!!. . الخوف من ماذا؟؟ من الفضيحة!!

لكن لكل فولة كيالها. . بضعة جنيهات وكسوة الموسم مع بعض الوعيد ويتزوجها أحد الفلاحين، وفي ليلة الدخلة يخرج إلى المدعوين بالقماشة البيضاء الملوثة باللون الأحمر، وتزغرد النسوة ويصبح كل شيء تماماً، ولا من رأى ولا من دري!

البنت بدرية عندما قمت من فوقها كان الدم محتقناً في الوجنتين كتفاح الشام، وأصابعها متقلصة تحاول أن تجد ما تمسكه. . والبنت خضرة شهقت بصوت عال ثم أصبحت كالخرقة الملقاة ودم وجهها كله متجمعاً في أذنيها الكبيرتين، كالحمار الوليد. . أما البنت فتحية فقد كانت مقرفة رائحة فمها كريهة، فلم أطلبها ثانية. . وشافية كان ابن عمها قد سبقني إليها ـ الفاجر! ـ فظللت اليوم بطوله في نكد شديد. . وبهانة وزينب وبسيمة. . . أمتعهن كانت زكية رغم أنها ليست الأجمل، قاومتني كثيراً جداً لكني بركت فوقها كالجمل العاتي، وعندما شهقت كانت كغشيم العوم وهو يغرق. .

كل واحدة تأتي داري تظل هيابة، حمامة وثعبان، تتوقع في كل لحظة إنقضاضي عليها، كلهن. . وعندما تجدني في طريقها تبتعد عني ذراعاً على الأقل، وكأن هذه المسافة تصون عفتها!! . . لا تهمهن الواقعة في ذاتها، الخوف كل الخوف أن يكتشف الأمر، شرفهن مهدر أن عرف الناس فإذا لم يعرفوا فهو مصان!! . . ودائماً أحل لهن هذه المشكلة، خضرة زوجتها للولد حسان وأعطيته عشرة جنيهات، وفي ليلة الدخلة رأى كل الناس المنديل الأبيض مليئاً بالدماء، فأطمأنت نفوسهم إلى طهارتها وسارت أمها بين الناس مرفوعة الرأس، وكان الدم الطاهر للأرنب الذي تعشيت به!! . . لم أتخل عن واحدة أبداً، عاملتهن بشهامة دائماً. .

حتى البنت فتحية ذات الفم الكريه لم تهن علي وزوجتها من عثمان

سايس الزريبة، وسوف تقلب له الدار إلى زريبة أطفال، لا تلد إلا لكي تحبل من جديد. . لكن بسيمة كانت أنصحهن، قالت لا تحمل هماً يا عمدة، فنفحتها مالاً كثيراً، وفي الليلة المعهودة رفضت أن تخلع إلا إذا أطفأ العريس اللمبة، وظنها خجول، وكان متعجلاً كثور الطلوقة، وفي لهفته كانت هي قد فقأت كيس الدم، ونهض ليشعل اللمبة وليجد اللون الأحمر ولتنطلق زغاريد الشرف. . الغفلة نعمة من الله، وهو الآن أسعد الناس!

أما زكية فهي اللخمة نفسها، وضعت الكيس في صدرها، وقبل أن تنقله كان قد إنفقأ!. . فظهرت الدماء في الصدر وكشف حسن السبع اللعبة، دماء العفة في صدرها، حتى العبيط لن يصدق هذا!!. . فعلة مضحكة فهمها وهاج وجاءني ليلة الأمس ليشتمني في داري، ابن الأسافل. . مالي أنا وهو الذي فقأ الكيس في صدرها؟!

وقال:

ـ لو عندك ابنة بكر أكنت تقبل أن يهتك الرجال عرضها؟؟

ـ يا ولد أنا لم أقرب زوجتك، الله يشهد

ـ الله يشهد إنك أبليس مفتري ولن تفلت منه

ـ يا ولد لا تنس إنك تحادث العمدة، كبير النجع. .

لقد أمرنا الله بالستر فلماذا لا يسترها ويمنع الفضيحة عن أمها وأخيها، زكية بنت طيبة وتستحق كل خير. . كانت تجفل مني كلما إقتربت منها، حتى بعد حدوث المكتوب، تجفل في حركة طبيعية

كالفرس العفية عندما يهم صاحبه بالركوب . .

وصرت سايسها الذي يعرف كيف يشكمها وكيف يلجمها ويلبسها السرج، وهي الفرسة النفور الفتية المتباهية . . لهذا لم تنقطع يوماً عن دخول الدار، وكان بإمكانها أن تكف، لكنها جاءت دائماً لأني صرت عمدتها ورجلها الحقيقي .

ويوم أن حام السبع أمام داري بملابسه الجديدة أمرتها بالأنصراف، فخرجت ليتقدم هو منها كسبع الفيافي . . وزففناها إليه بالأمس، وكانت ليلة شؤم صبحتنا بهذا النهار الرديء، فأنخبلت الهانم وجلست على قبر زوجها العاتي الظالم، تريد أن تقاوم الحكومة ببندقية قديمة . .

سوف يحملونني مسئولية ما يحدث، وربما ألبسوني تهمة ردم الترعة وأنا منها بريء . . جاءوا فجاءت معهم المتاعب . . ولو شاءوا لأراحونا وجرفوها مع ضريرها وتراب زوجها بهذه الجرافة الكبيرة، وهل يغلب أحد آلات الحكومة؟! . . لكنها عنيدة كحمار السبخ، صارت عنيدة بعد موت زوجها وكانت في حياته كالنعجة الكسول، لا رأي ولا صوت . . لكنها منذ لبست الحداد إنقلبت إلى إمرأة سليطة متسلطة، كأن روح المرحوم قد تلبستها، كأنه عاد بجبروته وطغيانه ليحيا في جسدها . . ظلت تحرضني ضدهم وهي لا تفهم أن ظهورهم مسنودة إلى الحكومة، حتى البدو تهيبوا وعملوا لهم ألف حساب . . وهل ينسون ما حدث منذ أعوام لأبناء عمومتهم في غروب مركز مغاغة، أدبتهم الحكومة بالمدافع والمدرعات، وكانت أعظم تجريدة للتأديب فيما مضى لا تزيد عن

عساكر الهجانة النوبيين!.. العاقل هو من يرضخ للواقع ويمكر ويساير ولا يجاهر..

في الصباح طلب مني الألفي إحضار البوليس من مركز سمالوط، قلت له:

ـ حالاً أرسل إشارة تليفونية.

ولم أرسلها خدمة للهانم، ولعلها آخر خدمة أقدمها لها بوصفي عمدة النجع.. لكن الألفي هذا أصلع ثرثار، كل عدة دقائق يسألني: «أين البوليس؟ أين البوليس؟؟».. فماذا سيفعل البوليس، لقد حادثت الهانم وحادثها الشيخ الشابوري وإبنتها ولا فائدة..

ـ هل أرسلت الأشارة إلى البوليس يا عمدة؟؟

ـ أرسلتها

ـ فأين هم؟؟

ـ ربما في الطريق.. لا أعرف!

ـ إذن فإني أحملك مسئولية حماقة هذه السيدة..

ـ وما ذنبي أنا؟!

ـ وأيضاً مسئولية كسر زجاج الكابينة

ـ وهل أنا الذي أطلقت الرصاصة؟!

ـ ألست العمدة هنا؟؟

ـ ومن غيري؟؟

ـ إذن عليك بإبعادها من هذا المكان، وفوراً..

يتركني ويذهب إلى حفارة صارخاً:

ــ حذار أيها المخرج. . رأيت المصور يصور، ما يقع الآن حادث مؤسف ولا معنى لتصويره. . أحذرك، هذا لا يدخل ضمن المشروع.

يحك رأسه ويتجه إلى خمرية:

ــ إعملي معروف يا آنسة، أنزليها إعملي معروف. . سأفتح المياه إلى هذا المجرى بعد ساعة تقريباً. . ساعة وثلاث دقائق بالضبط. .

تناجي المسكينة أمها، والمرأة صماء رعناء. . قلت لها منذ أسبوعين بأنهم بدأوا المشروع ليتموه ولن يتراجعوا فلم تصدق وجعلتني أصعد إلى الألفي في معسكره، مع إنه لم يزرني وهو الوافد على مكاننا. . ورغم ثقل ظله وقلة أدبه فقد هابني وإستقبلني بشكل محترم، وقال:

ــ تبدو عاقلاً وأنا راضي بحكمك: أيهما أسهل في رأيك نقل المأخذ أم نقل القبر؟؟

ــ لكن الهانم ترفض نقله

ــ كنت أظن أن مجيء الماء العذب من بحر يوسف إليكم يسعدكم. . أليس هذا أنفع وأوفر لكم من اللجوء إلى ماء المضخات؟؟

ورأيت المرأة الطبيبة فدخلت مزاجي. . وفي اليوم التالي تصنعت المرض وأرسلت في طلبها، فلما جاءتني وحدها قلت علامة خير. .

وتغزلت فيها وهي تكشف وتتحسس صدري، وتدغدغ أصابعها بطني وتشعرني بفورة ابن العشرين، وكدت أقتنصها، لكنها بنـدرية والعنف معها لا يجدي، إستدراج بنت البندر يختلف عن جرجرة بنت الريف. . نفحتها أجراً كبيراً ثم عرضت عليها ديكاً رومياً وحوالي مائة بيضة فقبلتها، وكانت هذه عـلامة قبـول أخرى. . وعلى الفـور ألمحت إلى غرضي وطلبت منهـا حبوبـاً مقويـة، ضحكت وهي تنصرف في ميوعة الغوازي:

ــ سيحدث يا عمدة، ربنا يسهل

وكنت أعـرف أن البندريـة تتمنـع في المـرة الأولى. . لكن بنت الأبالسة أرسلت إلي الحبوب في اليوم التالي مع حسن العبيط، وما أن تناولتها حتى وجدت نفسي في المرحاض!!. . قالت ربنا يسهل وجاءني الأسهال!!

آه لو صدق كلام التلميذ وكان الألفي وأتباعه رجال آثار، إذن لتوافد السياح والسائحات على نجعنا هـذا كما يتـوافدون على قـرية «طحـا العمودين»، ولفتحت لهم داري لأذيقهم كرم الضيافة الغرباوي. . أريد أن أجرب النساء البيض ذوات الشعر الأصفر المتريحات المتبرجات، بدلاً من زكية وهنومة وفتحية المتعطرات بالجلة والطين وبراز الأطفال وعلى أحسن الفروض بالصابون الفنيك. .

الأكيد المؤكد أن الحكومة سوف تلغي العمدية من هنا، وسـوف أصير أنا عمدة بلا عمدية، وسوف ينشئون نقطة للبوليس. . فليهنأوا، الخاسر هم الفلاحون ولن يهز هذا شعرة من رأسي. . سوف يأتي ضابط

شاب حديث التخرج لن يجد من يسامره ويجالسه إلا أنا، ومن يدري ربما تكون له نفس الغية فتتقاسم أو يلتقط البكاري من بعدي، إن لم يكن له في هذا فهناك غوايات أخرى، أحسن أصناف الحشيش تأتيني قبل أن يغشونها بالحنة ويبيعونها لأفندية البنادر، فإن لم يكن له في هذا أيضاً فلابد وإن له أم أو زوجة، وكل نساء المدينة ضعيفات أمام السمن البلدي والزبدة والمشلتت وأقفاص الطيور وسلال البيض، وباعي في هذا لا أول له ولا آخر، ولن يقاوم هذا الأغراء، راتبه بسيط وأسعار المدينة مثل نار جهنم الموقدة. .

ولن يشمت في هؤلاء الأجلاف كما يشمتون الآن في هذه المرأة المخبولة. . هذا زمنهم، يتفرجون على سيدتهم منذ الصباح، وعيالهم يلعبون من حولها كماعز الغجر. . عشموهم الغرباء في الرمال، قالوا لهم سوف تصبح أرضاً زراعية توزع عليكم بالمجان، سيصبح الأجراء ملاكاً والهانم لا تفهم ذلك، لا تفهم أنها وحيدة وأن واحداً من الفلاحين لن يتحرك من أجلها، أنهم يريدون المياه، وهل الفلاح يكره المياه؟؟. . حتى البدو عشموهم بأنصبتهم، فهل يتركون البنادق ويعملون بالفئوس؟!. . يظنون أنفسهم أفضل من الفلاحين وهم في الأصل متسولون وقطاع طرق، وحادثة الجمال هم مرتكبيها، والشابوري كبيرهم يدعى الوقار، وهو في الأصل من أراذل شيوخ المنصر. .

* * *

الفصل الرابع

عذراء الغروب



الساعة ٠٠, ٤ عصراً

قليل من تأملات وإندهاشات سيد بنادق

الصحراء وشيخ البدو/الشابوري (٦١ عاماً)

إنقلب حال الزمان. . وها هي الهانم فرجة للجميع، تعاند وتظن أنها تقاوم، والتيار جارف، والمرونة واجبة. . اليابس من الأعواد تكسره رياح الخماسين، لكن الفروع اللينة تساير الريح وتميل مع إتجاهها إلى أن تزول فتعود إلى سليم وضعها. .

الهانم المسكينة شاخت ـ كلنا شخنا ـ لكنها تكابر وتعيش في الماضي الذي راح، والزمن غدار. . من رأى بدايتها هنا لا يصدق أن هذه نهايتها، جالسة فوق قبر متهالك في زفة من عيون الفلاحين والأعراب، وهي التي جاءت في زفة عرس، في زمن الخير الوفير. . وكان القرش وقتها يساوي جنيهاً الآن، وألقوا بمئات القروش فوق رؤوس الرجال، فكانت تبرق تحت الشمس ويتكالب عليها الفلاحون كالدجاج الجائع يتكالب على حبات القمح. . وعلقت الرايات من عند معدية بحر يوسف إلى نجع الغروب وإلى الجبل نفسه، عندنا. . رايات زاهية حمراء وخضراء وبيضاء ترفرف مع الهواء. . كان يوم بهجة وحبور. .

وكان زفافها حديث المركز كله. . زوقوها في المنيا بالغالي

النفيس، ثم جاءوا بها في زفة العمر، لتستقر في بيت زوجها العزيز - المرحوم - وطوال الطريق والذبائح تنحر أمام موكبها، والموسيقى تسبق عربتها المزدانة بالزهور. .

وقبل مجيئها وزعت الكساوي علينا وعلى الفلاحين، فكان الجميع في ملابس جديدة، كانت ليلة العمر لها ولنا، وعوملت كأميرة. . ولما وصل موكبها إلى الدار - الذي تقف خلفه الآن - لم تر عيناها من جدرانه إلا الورود وسعف النخيل. . وإصطفت النسوة بالملابس الجديدة تزغردن. .

وفي المساء كانت فرقة الموسيقى من القاهرة نفسها. . ورأينا الراقصة التي كنا نراها في سينما سمالوط، وإستمعنا إلى المطرب الذي كنا نسمع أغانيه تذاع من الراديو ليلاً ونهاراً. . ونحن بخيولنا وجمالنا المزدانة نطلق رصاص التحية. .

كان جمالها بدعة، سبحان الخالق الوهاب، قوام وعنق وعيون حور. . كانت بهجة للناظرين. . وضيوف عرسها أكابر الناس، أكلوا وأكلنا، وكان الخير وفيراً، وأكل الفلاحون حتى شبعوا، ثم طاف علينا شربات الورد ونحن نتفرج على الراقصة البيضاء بردائها اللامع وجسدها الرعاش.

وتحية مني للسيد أديت مع فرسي مهران رقصة أذهلتهم كباراً وصغاراً، كنت شاباً فتياً يافعاً ماهراً، أما الآن فقد شاب الشعر وولى

الشباب ومات السيد ومن قبله مات فرسي مهران. . ولم أحزن في حياتي قدر حزني عليها. .

لهفي عليك يا خمرية هانم. . تبكين عذاب أمك. . ليتك ما عشت لترين هذا اليوم الحزين!. .

بعد أن تقولت ألسنة الفلاحين عن عقر الهانم وعن عـدم خلفتها طوال سنوات الزواج الخمس، وبعد أن بدأ السيد يبحث له عن زوجة ولود، جاءت البنت كالبدر من بعد غياب ـ ولله في أرحام النساء حكم! ـ ويوم مولدها قامت الأحتفالات وفرحنا ورقصنـا وأكلنا وشـربنا. . لكن الدنيا لا تترك الفرحان فرحان، وهذا شأنها على الـدوام وتلك حكمة الخالق، سبحان الخالق. . في نفس العام مات السيد ـ سيدنا ـ ومالك قلب الهانم، فبكته أسـابيع طـويلة ولم تخلع السواد من يـومها وحتى اليوم. . ما عـرفت في حياتي وفـاء مثل وفـاءها، إبنـة أصول بـالقول وبالفعل. .

أذاقها من الحياة العـز والسعادة ما فاق الحد والتصور. . وكان يحب أن يقف وقت الغروب في مؤخرة داره يتأمل المقابر، كان يقول علينا أنْ نأخذ عبرة الحياة من الأجداد، تتحلل أجسادهم إلى تراب لكن أرواحهم تظل حائمة فوق قبورهم من مغيب الشمس وحتى شروقها. . كانت له أقوال روحانية وكان تقياً يعرف الله ويعمل ما يـرضيه. . وفجـأة قطفـه الموت من بيننا وهو في أتم الصحة والعافية، اللهم لا إعتراض، فشيدت

له إبنة الأصول هذا القبر الجميل شاهقاً ليكون أعلى من الموتى وكان أعلى من كل الأحياء . .

أصلع الأغراب ينظر في ساعته، يصرخ:

ـ غير معقول ما يحدث، غير منطقي!!

يتقدم منها:

ـ يا سيدتي أعملي معروف، إنزلي . .

لا ترد . .

ـ الساعة الرابعة والمياه تتدفق الآن من بحر يوسف إلى هذا المأخذ . .

صامتة.

ـ سيدتي لابد من إزالة الأرض التي تحتك، لابد للمياه أن تمر . .

ـ لن تمر . .

ـ بمجرد وصولها سينهار القبر، أرضه رملية وستتحلل وينهار القبر بك وبهذا العجوز الأعمى . .

تشيح صامتة. الضرير يميل برأسه متسمعاً . . بح صوت الأصلع:

ـ أنظري تحتك وستتأكدين من كلامي . .

معه حق، وعليها أن تستجيب لنداء العقل . . سوف أحاول معها:

ـ يا هانم، يا بنت الأصول يا سليلة الأكابر، حب الراحلين في القلوب أما الأجساد فهي من التراب وإلى التراب . .

ترمقني غاضبة . .

ــ ما رفضت طلباً وفاء للسيد فلا ترديني خائباً، لك إبنة في عمر الزواج أحوج إلى رعايتك، أما السيد فمكانه في القلب. .

لا فائدة، هي الجانية على نفسها، لهفي عليك يا خمرية وعلى دموعك الغالية. .

زعيم الأغراب يصرخ في سائق حفارة:

ــ قل للمخرج أن يصور المياه لحظة قدومها، من الشرق من الناحية الأخرى، ليصور أي شيء، العصافير البط النخيل، أي شيء، لكن محظور عليه تصوير هذه المجنونة. .

تشهق خمرية. . والمهندس الشاب يهبط إليها من فوق الكوم ويحادثها. . هل يعرفها حتى يحادثها؟!. . ما هذا الزمن الماسخ؟!. . يا سيد كانت الأصول في زمنك وليتني رحلت معك في نفس يومك ولا رأيت هذه المساخر. . سيدة النجع يحدث لها كل هذا، والمهندس الغريب يمسك كف إبنتها؟! وأمامنا!!. . يا للعار ويا لعاري أنا الشابوري شيخ البدو، لحم أكتافنا من خيرها ومن خير الراحل العزيز ولا نستطيع نجدتها!! ماذا تركنا للفلاحين النعاج؟!

كنت في خيمتي منذ أسابيع فإذا بها تدخل:

ــ يالله. . الهانم؟!. . الهانم تأتي إلينا!!

جلست هادئة صامتة دون حركة. رحبت بها:

ـ خطوة ميمونة مبروكة، هذا يوم عيد، كان عليك أن تأمري فأنزل إليك فوراً.

وتكلمت فكشفت عن نار متأججة في داخلها، لولا الملام لبكت أمامي، لكنها لا تبك، فيها من قوة السيد. . قالت:

ـ الترعة يا الشابوري، ترعتهم، ستخترق قلبي، ستجرف قبر السيد ورفضوا ان يحيدوها عن مسارها. .

الدم في عروقي دم بدوي أصيل ورثته عن أجداد كرام، وسيدة نجع الغروب بلحمها وشحمها تستجير بي، تستنجد بنا نحن البدو، وهل نرد لها رجاء؟!

ـ لكن يا هانم الترعة ترعة الحكومة، والحكومة لها جيش وبوليس. . ما باليد حيلة!!

ـ أردمها يا شيخ من أجل خاطري. .

ـ وما الجدوى يا هانم؟!

ـ أردمها يالشابوري من أجل خاطر السيد. .

وليلتها جمعت عشرين جملاً وعشرين ساقاخشبية ثقيلة، ربطت كل ساق من طرفيها بحبلين شد إلى كل جمل، وحملناها هابطين مع بداية الليل إلى الترعة المحفورة. . وعند مرورنا بمعسكر الأغراب سمعناهم يتضاحكون ويتسامرون بصوت مرتفع، وسمعت ضحكة المرأة المداوية، ماذا تفعل هذه الأنثى الوحيدة بين كل هؤلاء الذكور؟!. .

وهل يسمون العهر طباً؟!. . زمن المساخر يا سيد!!

عنـد الترعـة ألقينا الأثقـال الخشبية إلى الأرض جـررناهـا خلفنا صاعدين أكوام التراب المـرفوع هـابطين بهـا إلى المجرى الجـاف، فجرفت الأثقال الرمال أمامها وأعادتها إلى مكانها الأصلي حيث خلقها الله. . كان الهلال من فوقنا والظلام حالك لكن عيوننا ترى في الليـل وجمالنا تعمل تحت جميع الـظروف، وقبل بـزوغ الفجر كنـا أنجزنـا المهمة، ومررنا عائدين من هذا المكان حيث كانت الهانم في شرفتها، ومن المؤكد أنها إبتسمت لنا بالعرفان. .

وما كان هناك جدوى من كل هذا، لكني جاملتها كي تهنأ روح السيد وتقر في قبره. . لابد أن روحه تهيم فوقنا الآن معذبة بائسة، سامحنا يا سيد ما باليد حيلة والأمر مفوض للخالق عز وجل. .

وظللت أتوقع مقـدم الشرطـة، توقعت أن يجـرجروني معهم إلى المركز وأنا في شييتي هذه، لكن أحداً لـم يأت وفهمت أن كبير المشروع يريد أن يسيِّر أموره بلا مشاكل، عاقل والله. . وأعادت حفارته الحفـر وكأنها ألف رجـل. . تعمل آلاتـه كأنهـا جن سليمان الحكيم، كـأنها العفريت وقد خرج من القمقم، ترفع من التراب في الدقيقة الواحدة قدر ما يفعله ألف فلاح وألف مقـطف وألف جاروف، الجـرفة منهـا بألف كبشة!!. . وعندما دوى جرارهم الأول هاجت جمالنا وبكى العيال وشرد الماعز، لكنها تعودت وتعودنا وصرت أنام ولو فوق مني ألف جرار. .

وكم شعرنا بالضآلة كلما مررنا قرب ماكينة الرفع الكبيرة وزميلتها القابعة فوق التل، فبدأنا نصدق أن الأرض سوف تخضر، حتى حسن السبع صدقناه عندما أشاع بأن الدولة ستوزع جميع الأراضي المستصلحة علينا وعلى الفلاحين. . لكن أحنقتنا هذه المساواة: فالفلاح خلق ليسوسه الآخرون وهذه مشيئة الله، نحن الذراع القوية حاملة البنادق وهم الذراع الرخوة حاملة الفئوس والقفا العريض متلقي الكفوف، هم فلاحون ونحن بدو وكفى. .

لكن من كان يتصور أن فلاح مواسم مثل السبع العبيط يتعلم قيادة الجرار؟!. . ولكن ما الذي أتى به هنا الآن؟! هل من اللائق أن يترك عروسه في أول نهار؟!. . نعرف أن باع الفلاحين مع حريمهم ضعيف، أما البدوي فله حيوية التيس ويعرف كيف يروي حرمته ويصونها. . كانت زفته هذا السائق زفة ما حصل مثلها منذ زواج الهانم الكريمة، بهرت كشافات السيارات عيوننا القوية وأعشت عيون الفلاحين الذابلة، وما رأينا ليلاً نوراً أشد إبهاراً من كلوبات الأفراح والمآتم وليالي الطهور!!. . وزفوه مع زكية في سبع لفات حول القرية، وألقوا بالحلوى المغلفة بالورق على الواقفين، تعجب يا زمن. . كل هذا لأجل زفة سائق هو في الأصل فلاح!

وكنت قريباً من الهانم وجاء النور على وجهها فرأيت دمعتين على خديها، فهل كانت تتذكر زفتها؟؟. . وماذا لو حاد مسار الترعة عن القبر مترين أو ثلاثة؟؟. . ثم سقط النور على وجه غرباوي العمدة الجبان،

وعلى محيا خمرية، متى يأتي عدلها؟؟ ولماذا تركت المهندس الغريب يمسك كفها؟؟

ولكن، هل أنا واهم؟!.. أكاد أرى شبح ابتسامة يرف فوق شفتي الهانم!.. يا الهي، فهل ترى السيد الآن؟!.. ليته يحادثها ويرجعها لصوت العقل.. لكن العجوز على أسفلها يتمايل جذعه الطويل يميناً ويساراً مثل المرأة النادبة، ضرير عاجز الآن، وكان الحارس الذي يهابه أعتى قطاع الطرق!! والقوي المفتول والرامي البارع!!.. لكنها الدنيا..

ايه يا دنيا!!

* * *

الفصل الخامس

عذراء الغروب



الغروب

شكاوي وأوجاع الخادم الضرير / على (٦٦ عاماً)

من أحوال الزمان ورحيل الخلان . .

كيّاد يا زمن

حضروا بزوابعهم كشهر أمشير، شهر الغدر والزعابير.

زمن كياد والله يا سيدي، يا ساكن هذا القبر، الفاتحة لروحك يا جبار الغروب، يا سيد كل الكرام سامحنا وأرفع غضبك عنا. .

إنقلب حال الدنيا. . الفوق تحت والسافل صار فوقاً، ركع السبع للكلب وسجد النسر لأبي القردان، والفأر بين القطط صار سلطاناً وله صولجاناً! !

من بحر يوسف حتى الجبل كنا نحب السيد ونرهبه، سخى اليد كريم المحيا، لم ينم أحد رجاله جائعاً قط، ولم يتأخر في أي عيد أو موسم عن توزيع الكسوة واللحم الضأن. . حتى البدو، كانوا قطاع طرق نهابين، يسرقون القطن ليلاً ويفرضون أتاوة الغلة نهاراً، حتى هؤلاء جعلهم حراساً لأرضه فأمتنعوا عن سم البهائم وحرق الأجران، حموها من سرقاتهم!

كان الكبير. . ويدور الزمان اللئيم ويطلب الأغراب هدم مقامه!!

غدار يا مكتوب. . ما سار فلاح أمام داره إلا منحني الهامة إحتراماً، ما وقف بدوي أمامه إلا منكس الرأس، توقيراً له وللهانم من بعده. . والآن أشعر بهم يلتفون من حولنا، كأننا حاوي المولد. . أحس بعيونهم تنهش فينا كنهش أبناء آوي لرمة القتيل. . أسمع همهمات أحاديثهم كصوت حش البهيمة للعليق، وأشم غبار عيالهم كغبار الماعز والجديان. .

نهشنا طالع منحوس!!

أذكر ـ قبل أن يضعف جسدي ويقل نظري وأقعد ـ أذكر أنها جاءتنا زينة للناظرين، بيضاء لا شبيهة لها إلا في البنادر، سمينة سمنة العز والجاه. . فأحبها السيد وعشقته، وكنت خادمه الوفي وخليه الصدوق. . كنت أول من يصبحه بالنور وآخر من يمسيه بالخير، ثم صرت الثاني بعد قدوم سيدتي. . كان لها منذ أول الليل، معي من ساعة الشروق، وكنت أستجيب لنداءته من قبل أن يصيحها. .

دنيا دوارة على الحلو بالرديء. . أرفع غضبك يا رب، لم أسع إليها وإنما هي التي جاءت، والليل ستار والشيطان جبار!

أذكر ـ بعد أن صرت ضريراً وإنهد الحيل مني وقعدت ـ أذكر أنني سمعت الشابوري العاتي يرتعش صوته في حديث مذلة، يتوسل إلى السيد يطلب غفرانه. . وكان حسين الأعسر فلاح الساقية قد زاغت نظراته إلى سليمة البدوية وتزوجها على سنة الله ورسوله، لكن البدو ثاروا وقالوا: «ضاع شرفنا، لا يختلط دم البدوي بدم الفلاح» ثم قتلوا الأعسر. .

جلجل صوت السيد:

ـ الأعسر فلاحي وقتل فلاحي إعتداء على حرمة أرضي..

وكانت جلسة حق عرب قضت بحرمانهم من عشرة أرادب قمح، ولم ينطق الشابوري بكلمة إعتراض واحدة وما كان يقدر.. كان صوت السيد إذا غضب يزلزل النجع ويهز الجبل، وكان شهماً لا يترك ثأره، واسع الحيلة طريقه كطريق أبو زيد كله مسالك، ليناً مع المطيع قهاراً مع اللئيم.. ولم يكن لفرسه مثيلاً في كل الغروب..

تحية لك والفاتحة على روحك الطاهرة ـ هي التي جاءت يا سيدي وكنت بغرفتي أستريح ـ والآن تشرب زوجتك المر بالخل وماء النار..

مات الغالي فركبها الذنب وبنت له القبر العالي، وزرعت حوله زهر القرنفل والريحان، فهزمت روائحها عطن القبور وعفنها.. وصارت تجلس كل مغربية فوق مقعدها الهزاز وأجلس عند قدميها، وعندما تختفي الشمس يأتي إلينا السيد ويجالسنا ـ تقول ـ وتراه هي وتسمعه.. إصطفانا من دون العالم لسامرنا كل ليلة، أنا خليه وهي زوجته.. ونظل نتهامس معظم الليل، نحكي عن العز وعن أيام الهناء.. التي لم تدم سوى خمس سنوات..

حول.. وحول ثان.. وحولان آخران، وجاء الخامس ولم تحبل بنت الأكابر ذات العود الريان.. وقال السيد:

ـ سأبحث عن زوجة ولود يا علي..

وتحسر السيد:

ـ أريد ولداً يرثني، عندي المال وينقصني البنون يا علي!!

وهمست الهانم، أيام عديدة وهي تشكو:

ـ ليس ذنبي يا علي، قال الطبيب أن رحمي سليم، العيب منه

وكان نظري قد شح وحل الظلام فقلت:

ـ الله كبير وهو موجود

ولمست القلق في صوتها وهزات ساقها، وسألتني:

ـ هل قال لك شيئاً يا علي؟؟

أنكرت. . وظلت تنوح، ليالي كثيرة:

ـ أشعر بأن مصيري الطلاق يا علي

ونامت في الغم وقامت في الهم:

ـ سيطلقني وسأبقى العمر عزبة دون عزوة رجل. . وما لي ذنب!!

ومن جلستي عند قدميها صرت أعرف رائحتها وأعرف مكانها من رائحتها. . وعرفت يمناي ملمس شبشبها، وصارت جبهتي تهلل لطرحتها عندما تلقي بها حول عنقها فتلمس وجهي، وأشم الرائحة. . أتذكرها. .

كنت في غرفتي أستريح ـ بعد أن غدر الزمان ببصري ـ وجاءت. . سمعت الخطوات تقترب، والباب يغلق، والخطوات تدنو، قلت:

ـ من؟؟

فسمعت التنفس، قلت:

ـ من؟؟

فلمستني اليد. .

ـ من؟؟

وصعدت المرأة إلى سريري والتصقت بي. . فزعت:

ـ من؟؟

همس صوتها:

ـ إسكت. .

وإمتد كفها من فتحة سروالي تدلك صدري ثم هبطت ورفعت جلبابي، وكانت كقطة الربيع الهائجة. . وراحت تهمس:

ـ لا تكن كالميت، ساعدني أيها الفحل!

وكانت رعشة وحمى بدني، أخذ الله من بصري ووضع في بدني، ولمست ساقيها الناعمتان. . وسألت:

ـ من؟؟

وكنت أعرف. . لكنها همست:

ـ راوية

ـ راوية من؟؟

ـ راوية البدوية

ـ قد يأتي السيد

ـ إنه بالخارج، والهانم نائمة

ـ لكن جسدك أملس من جسد البدويات!!

ـ كيف عرفت؟؟. . دهنته بالحليب هذا الصباح

وأفرغت فيها شهوتي، وكانت ملساء وسألتها:

ـ هل ستحضرين غداً؟؟

فزامت:

ـ إخرس يا أعمى

وإنصفق الباب وحل الصمت، لكني أذكر رائحتها، أعرف الملمس وأذكر رائحتها. . عرفتها من أول شمة، ولم أعرف كيف أقاوم. . لم أشأ!

جبار يا بين، هويت بقلوب وزلزلت عروض، وهذا غضب الله. . وأول أمس جاءنا رئيس الأغراب في المساء ـ لثالث مرة ـ وكنا بالشرفة، ورفضت الهانم أن تقابله. . قلت لها:

ـ قابليه يا هانم وإسمعي منه.

لكنها أبت، كانت تعرف أن السيد لا يوافق على نقل قبره، أمرها بأن ترفض فرفضت. . وبعد إنصراف الغريب صمتت ثم قالت:

ـ يهددني يا علي

ـ كيف يهدد الغريب أصحاب الدار؟!

ـ ليس الغريب. . إنه السيد، حدثني الآن وأنذرني، لو وقع الضرر بقبره فلن يأتي مرة أخرى، وسيختفي إلى الأبد. .

كنت بغرفتي وقالت المرأة «إسكت يا أعمى» ولم تزرني مرة ثانية. . وظننت أنني أحلم. . أعرف رائحة البدوية، ماعز وتمر وأطفال. . وأعرف رائحة الفلاحة، جلة وبصل ودخان فرن. . والمرأة التي جاءت ـ التي حلمت بها ـ كانت فياحة الجسد، كالعطر، بثديين مشدودين، وراوية البدوية أرضعت من الأطفال خمسة عدا أطفال الجارات. . عرفتها من عطرها، لكني تهابلت وكتمت أنا السر في جب غويط!

عجيب يا زمن، وضعت في أيدي الأغراب آلات كالغيلان، سمعت عن حفارتهم التي دوت منذ قليل بصوت الرعد، فأرتعدت وحسبتهم

يريدون جرفي مع الهانم والقبر في كبشة واحدة ليلقون بنا بعيداً، فأستشهدت على روحي وصرخت للهانم أن تقرأ الفاتحة.. ونسيت أن أقرأها على روح السيد، سامحني يا سيد: سامحنا.. وصرخت فيها:

ـ أين العمدة؟؟

ـ يقف مقصوص الجناحين وسط أفراخه الفلاحين

ـ وأين شيخ البدو، ألا ينجدنا؟؟

ـ كالقرد المسخوط فوق فرسه الهزلان.

هتفت:

ـ إقتلي زعيم الأغراب، أقتليه يدخل أتباعه الجحور كالفئران

ثم سمعت صوت خمرية ـ حبيبتي يا خمرية ـ مبتئساً متوسلاً ثم صوت بكائها.. ظلمها المقدر وكادها المكتوب، وما ذنب لها..

لم تزرني المرأة ثانية ـ لكني أذكر الرائحة وأعرف ملمس الجسد ـ وبعد شهور دوت الزغاريد ببشرى حبل الهانم.. ثم جاءت خمرية، العزيزة الغالية، فدق الطبل وعلا الزمر، وحمدنا الله وكف السيد عن فكرة الزواج الثاني.. ثم مات في نفس العام، فحزنت الهانم وراحت تعاير الطفلة بأن قدمها قدم نحس، وركبها الهم وقالت هذا غضب الله، وركبها الذنب.. وحلت عندي محل السيد، فصرت أجلس أسفل مقعدها وأشم الرائحة.. وصرت أفهم الأصوات، صوت يقول أنها ترفع قدميها، وخبطة كف فوق فخذ تخبرني بوطأة الأسى عليها، وحفيف يقول بأنها تنوي النهوض أو تنوي أرجحة مقعدها الهزاز أو ترعش مروحة اليد أمام وجهها.. ومع كل حركة أشم الرائحة.. وعندما سمعتها تهمهم:

«نقمة الله قادمة» لم أعرف أنها رأت مسار المأخذ قادماً كسهم القدر ليخترق هذا القبر. . وإرتج مقعدها وبعد وقت سمعتها تقول:

ــ لا يريد أن يسامح، إنه يعرف ولا يغفر. .

ولمست كفي قدمها فسحبتها بسرعة، وأحسست بالنعومة. . وهذا الصباح سحبتني بيدها وجئنا وجلسنا هنا. . ولم أكن أفهم. . .

لكن ما هذا؟؟ لماذا الصمت؟! الجميع سكتوا، حتى الأطفال كفوا. . هل جاءت المياه؟؟. . تنفس الهانم سريع عالي، وشهقات خمرية ـ ليس ذنبك يا خمرية ـ وسعلات مكتومة. . فهل هي المياه؟!. . منذ وقت قال الغريب أن الساعة بلغت الرابعة، وحاول الشابوري إنزالنا ـ بدلاً من أن يطردهم ـ ثم هدد الغريب بأن الساعة تجاوزت الرابعة بنصف ساعة وطلب من العمدة أن يبعدنا. .

يحسبون الوقت بساعة حديدية، وكنا نحسبه بشمس الله وبأوقات الصلاة: الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء. . كان الوقت براحاً يمضي بنا هادئاً حتى جاءوا بالسم في أعمالهم. . المؤذن يؤذن للمغرب، أظنه واقف الآن معهم، الكل ملمومين من حولنا، كأننا حاوي يبخ النار وغازية تهز الردف، وليتنا نقدر على بخ النار من فمنا ونحرقهم كما حرقوا أعصابنا. .

قال ستصل المياه وكذب. . كانت الشمس تأتيني من الغرب، والآن لا أشعر بها ولم يصل شيئاً. . ويقولون سيزرعون الرمال فماذا سيفعل البدو. . ولماذا عاد الصمت ثانية. . هذه المرة السكون تام!. . يا رب

هل هو يوم الحشر، ساعة الحساب؟!.. ولكن هذا الصوت الخافت جداً، صوت مياه، كيف تأتي؟؟

هل وصلت؟؟.. الآن الصوت أوضح.. كيف جاءت؟!.. المياه.. المياه!!

يا زمن عشت لأسمع بحر يوسف يأتي هنا!!.. قهروه ولوا ذراعه وآتوا به إلى هنا!!.. يا سيد الغروب جاءتك المياه وخريرها الآن يرتفع بين هذا الصمت الشامل. لكنهم يشهقون، وهذا صوت الهانم البائسة المقهورة تلعن الجميع، وهذا صوت الأغراب مختلطاً بصوت الشابوري:

ـ يا هانم إنزلي، سيتهدم القبر.. وصلت المياه والشمس ذاهبة إلى وراء الجبل، إنزلي قبل الظلام.. قبل الليل..

تسبهم، ولا أسمع لغرباوي حساً، رجل جبان فاسق زاني، لولا زناه ما غضب الله علينا وأرسل لنا الأغراب الكافرين..

الكافر يصيح:

ـ يا دكتورة سوسن أكدي على المخرج بعدم تصوير هذه العجوز الدميمة..

صرخت فيه:

ـ أنت الدميم يا قرد

هذا الصوت ـ ملعون يا زمن ـ هذا صوتها، نحيبها حبيبة القلب خمرية!!

الكافر يصيح:

ــ يا سامي لا تقف ساكتاً، كلم هذه المجنونة وأقنعها، أنت تجيد الكلام. . يا سامي ساعدني، أعمل أي شيء. .

صوت الهانم متحشرجاً:

ــ تدور الدنيا، تظلم في وجهي وتدور، الحقني يا علي. .

ــ الحقونا يا عالم، الهانم تعبانة. .

ــ إخرس يا أعمى

قالت: إخرس يا أعمى» تقولها الآن كما قالتها منذ تسعة عشر عام. . وهذا صوت خمرية. . خرير المياه وبلبطة العيال في المياه، جاءتكم المياه يا أولاد النعاج، يبلبطون. . وهذا نحيبها يعلو، خمرية. . وما ذنبك أنت يا غالية، ليس ذنبك حتى تتعذبين بالبكاء. .

كاد الزمن يا غالية، وطعم القهر مر يا قطعة مني، يا حبيبة. . يا إبنتي!

* * *

الفصل السادس

عذراء الغروب



الليل

ذكريات الصبا وأحلام الشروق والغروب

للابنة الوحيدة/ خمرية (١٩ سنة)

آه من عينيها، أحبهما وأهابهما، دائماً تخاطبني بهما. . توسلت إليهـا أن تنزل فرمقتني بنظرة كلسع النار. . وعند الظهر صوبت بندقيتها نحوي أمام الغرباء والفلاحين والبدو. . يا لتعاستي وأنـا أراهـا فرجـة للـطيب والرديء. . أمي العزيزة. .

عمرها ما ضحكت في وجهي، لكني أعرف أنها تحبني، من سلوكها وخوفها علي. . ومنذ طفولتي لا أنام إلا إذا شعرت بها تدخل غرفتي لتغلق النافذة وهي تظن أنني نائمة. . أهوى تأمل النجوم ويغلبني النعاس وأنا ناظرة إلى السماء والقمر، لكني لا أنام تماماً إلا إذا شعرت بخطوها البطيء وهي تغلق النافذة ثم تسحب الغطاء فوقي، فأشعر وكأنها تقبلنـي قبلـة المساء. . فان لم يكن هذا هو الحب فكيف يكون؟؟. . كثيراً ما شعرت بها تتأملني، بنظرات الأمومة العطوف، لم أر هذه النظرات فدائماً أتصنع النوم لكني أشعر، أحاسيسي لا تخطىء، أقول لنفسي أنها الآن تتأملني، تبتسم، تلاغيني في سرها. .

لكنها عنيدة، والعناد الآن لا ينفـع، ولـم تحنـن دموعـي قلبهـا. . والألفي قال ان الأرض رملية وسيتهدم القبر، وأمي لا تفكر، أي حب هذا

الذي يجعلها ترضى بما هي فيه الآن وهي عزيزة النفس؟! . . وهل كان أبي ساحراً في حياته إلى هذا الحـد؟؟ . . تعيش لذكراه قبـل أن تعيش لي . . مات قبل أن أكمل العام الأول من حياتي، حدثني عم علي عنه فقال :

ــ أذكره كما لو كان أمامي الآن . .

ــ أوصفه لي

ــ عندك الصورة

ــ الصورة تعطي الشكل، أريد الروح

ــ كان صافي الروح، قوي العينين، نظراته تهـز قلـب محدثـه . . كثيف الشعر في رأسه ويديه وصدره وكل جسده . . كانت له عيون الصقر وقوة شمشون . .

ــ هل تصف أبي؟؟

ــ ومن غيره؟!

ــ لكن الصورة . . . .

ــ كان أبوك ان وقف في عين الشمس حجبها من خلفـه، كان إذا خـرج في ليلة بـدريـة طغى نـوره عــلى نـور البــدر . . كـان شــاربـه كشاربي السلطان . . وكان إذا فرد طوله علا حتى قارب ارتفاع النخلة . .

وكانت الصورة تقول أن أبي متوسط الطول، ربع القامة بشارب صغير وبلغـد خفيف، ويبـدو أن أذنيه كانتـا كبيرتين إلـى حد ما، وأنـه كان سيصلع . . لكن عم علي كان ضريراً يوم ولدت، وهو الآن كهلاً، ولعل الملامح قد تاهت في عقله، في كل مرة يضيف صفات جديدة من عنده،

حتى أيقنت أنه يخلط بين صفاته هو وبين صفات أبي الـذي يبـدو في الصورة جميلاً بالوردة في عروة الجاكتة. . أجمل صورة رأيت، وأجمل رجل رأت أمـي، فوقف قلبهـا عنـده واستراحـت عواطفهـا مع أيامـه، ورفضت كل ما عداه ونسيت أيامها من قبله وأنكرت أيامها من بعده!!

ماذا يفعل الحب في الناس؟!. . ليتني أعثر علـى زوج في روعـة أبي. . أين سامي؟؟. . لماذا يجلس فوق الـكوم بعيداً؟!. . لمـاذا لا يقف إلى جواري يقويني؟!

خسارة أنني لم أر أبي، عام ولدت ودع الدنيا، فتشاءمـت أمـي من تقدمي، ورمتني دائماً بعتابها: «يا قدم الشؤم. . يا وجه النحس». . حتى خيل لي أنها تكرهني فاختبأت ذات يوم في المندرة، وظللت بها حتـى افتقدتني وبحثت عني، ولما لم يعثروا علي أخذ صوتها يتغير ويرق ويرن فيه القلق. . وبعد وقت سمعتها تناجي اسمي بكلمـات حلـوة، عشـق ومحبة!!. . ومع ذلك لم تحنن دموعي قلبها على عكس سامـي الـذي نزل ـ أخيراً ـ من فوق الكوم وجاءني فأعطيته كفي. . لو أجرؤ على سند رأسي فوق كتفيه، تعبانة، وكل الناس تعبت. . الفلاحون جلسوا على الأرض، وأطفالهم قد ملوا اللعبة، ولعلهم قد شعروا بالجوع، بعضهم يقضـم الخبـز. . والألفي يطلـب من سامـي أن يساعـده فمـاذا يفعـل المسكين؟؟. . يكفيه خوفه علي، ما ان لمست كفي كفه حتى سحبها، يخشى علي من كلام الناس. . ولم أعرف في الدنيا من هو ألطف منه، في الحقيقة لم أعرف غيره، سحرني بهرنـي أسعدنـي يوم أن حادثنـي أول مرة. . للآن ما زالت لمسته في كفي، سحب كفه واقترب من الطبيبة،

تبسم له لكنه لم يكلمها. . حلمت به كثيراً، قبل النوم وفي النوم، أحلام اليقظة والنوم، أعتمد عليه يقويني يمتعني، يحميني ويحتويني، يأخذني إلى بيت بعيد، يداعبني يعاتبني، يلاغيني يمتدح أكلي، يدللني ويملأ بطني بطفل جميل، يرعاني يطوف بي الدنيا، حبيبي وحضني الآمن. . وما زالت لمسته في كفي. . وما زلت أرى عينه في عيني، آه منهما. .

كانت الشمس تشرق من خلفي لتنير وجهه، وهو واقف فوق التل وأنا فوق السطح، كنت أسأل نفسي ان كان ينظر لي أنا أم إلى الشروق؟!. . تشرق الشمس على وجهه تغرب على وجهي. . وعندما حادثني وسار معي في المنيا قال:

ــ أراك عند الفجر كحورية وسط هالة الشروق فصار اسمك عندي حورية الفجر. .

وقال:

ــ جميل أن أبدأ يومي برؤيتك مع شقشقة النهار. .

في حلاوة الشهد كلامه وابتسامته، بل وحتى شروده. . ولا أنسى أول مرة رأيته، من خلال الستائر وكانوا عائدين من معاينتهم الأولى، ورأيت عينيه، ولم أر من رجال السيارة سواه، كان الباقون ينظرون لكني رأيته هو، فلما عادوا ورأيته فوق الجبل عرفته، لوح بيده ولم أرد لكني ابتسمت وكنت أعرف أنه لا يرى ابتسامتي، فالشمس من خلفي، كان يراني شبحاً. .

ما زالت لمسته في كفي، سحبني إلى ظل هذه النخلة القصيرة ثم تركني. . وكنت خائفة على أمي من سخونة الشمس. . منذ ستة أيام وهي

تغلي، ترى المأخذ يقترب من القبر فتتمزق وتهتاج ويموج غيظها، كأن المأخذ سكين مسلط إلى قلبها. . مجهدة شديدة التعب هي، والطرحة السوداء حول وجهها لا تكفي لحمايتها من هذه الشمس القاسية. . تتكىء على شاهد القبر، تعبة هي. . وسامي يحادث الألفي، والطبيبة تنضم إليهما، ينظرون إلى الحفار ويبتعدون. . والشمس قد أخذت نورها وغابت، وبدأ الليل يحط بسواده!!

كنت ذاهبة إلى المنيا، وفي محطة سمالوط كان لبقاً فلم يكلمني، وفي القطار كلمني، وفي المنيا سرنا معاً. . أول مرة أمشي مع رجل، أجمل رجل - محرومة أنا في هذا البيت من أشياء عديدة جميلة - وكلمني طويلاً وسألني كثيراً، وصحبني في شراء الأقمشة الجديدة من شارع التجارة، وساعدني في اختيار الألوان، جميل هو لكن ذوقه في الألوان لم يعجبني. . ثم جلسنا معاً على الكازينو المطل على النيل، الهواء والزهور والنيل والعصافير وعيناه وكلامه، أسمعني أحاديث أخاذة ساحرة، وأربك قلبي ودقاته كلما جاءت عيناه في عيني. .

لامني لأني لم أتم تعليمي ومكثت في البيت بعد الثانوية. . قلت:

ـ ما ذنبي، رغبة أمي!. .

ـ أمك؟؟

ـ نعم. . ولو عرفت أني أجالسك الآن لماتت غضباً. .

ـ إلى هذا الحد تكرهني؟!

ـ تكره جميع الأغراب. .

ـ لكننا لم نفعل ما يسيء!!

ـ أنتم؟؟

ـ نعم نحن

ـ أولاً نزعتم أرضنا بتراب الفلوس لحفر ترعتكم وسكتت.. ثم أخذتم الفلاحين للعمل عندكم فارتفعت أجورهم وقل حياءهم وتنمردوا وسكتت.. آه لو عرفت أن الدور على وحيدتها!!

قال ان صوتي جميل فأربك دقات قلبي.. لكني قلت:

ـ لا أعرف لماذا أجلس معك، هذه أول مرة أفعلها

ـ الناس في كل مكان يتعارفون ويتصادقون، انظري حولنا، في كل مكان فتى وفتاة..

ـ لكنك تعرف تقاليد الصعيد ونجع الغروب وناسه، ولا تعرف أمي..

وحدثني طويلاً عن صباه في الثانوي وفي الجامعة، كان يتكلم وكأنه يحكي عن ماضي بعيد، فهتفت فيه:

ـ تتحدث عن شبابك كأنه مضى بعيد وكأنك كهل قعيد؟!

ـ بل كهل..

ـ على العكس، أراك رجلاً قوياً وملء العين.. وجميلاً.

ـ هذا لأنك صغيرة السن..

غضبت منه، وعندما دعاني للغداء في بيته غضبت، ماذا يظنني؟!.. لكنه قال:

ـ أمي طيبة وسترحب بك، ستحبينها من أول نظرة!!

فوافقت، أسعدني أن يقدمني إليها وأحببت أن أراها وأن أرى البيت الذي يعيش فيه، أردت أن أعرف كل شيء عنه.. وكانت لطيفة رقيقة

شرحة، أرق من أمي، لو كانت أمي في مثل بشاشتها!!.. قدمني إليها على أنني زميلته في العمل، طبيبة المشروع ـ هو أيضاً لا يجرؤ أن يقدمني بوصفي حبيبته!.. تقاليد الصعيد وقرفه! ـ فتعجبت العمة الطيبة:

ــ لكنها صغيرة!!

غمز لي الماكر وقال:

ــ لشدة ذكائها أنهت تعليمها مبكراً!!

وسألتني العمة عن أهلي ونسبي وعائلة أمي، وأعجبني حديثها، رقت لها وحدثتني كما لو كنت سأصبح خطيبة ابنها، وطلبت مني تكراراً الزيارة.. وقبل موعد القطار أوصلني إلى المحطة.. حزنت لأن القطار جاء سريعاً، انتهت المقابلة وتمنيت لو دامت، لا يدوم الحال الرائق، والزهرة الجميلة عمرها قصير. لكن لماذا قدمني إلى أمه ان لم يكن يريدني زوجة حلالاً؟!

وعدته أن أعطيه إشارة في الفجر ان كنت متوجهة إلى المنيا ثانية، وفي الأسبوع التالي أشرت له لكنه لم يأت!!.. لعله لم يفهم الإشارة، لعل الشمس أعشت عينيه فلم يرها، كانت في عينيه.. أم أنه منشغل بغيري؟؟ قد تكون هذه الطبيبة، ولكن هل يمكن؟! لقد قدمني إلى والدته وأحبتني..

ومنذ أسبوعين كنت ألوح له فاذا بأمي تقف خلفي، لم أشعر بها تقترب، كنت هائمة معه، واختفى هو من فوق الجبل وكأنه لم يكن.. لكنها رأته ورأت الاشارة فضربتني ولعنتني ومنعتني من الخروج، وصار

لقاؤه مستحيلاً، حبيبي ومالك قلبي وآسر فؤادي ومؤجج عواطفي.. منحوسة كما تقول أمي.. لقاء واحد ولم أفرح بالثاني.

قالت:

ـ لا خروج بعد اليوم حتى يلمك زوج منكود الطالع..

فلماذا لا يكون هو عدلي، انه ليس عجوزاً كما يتصور، وأنا لست صغيرة، أحبه وأعرف كيف أسعده.. أقترب من العشرين وسوف أسعده وأمتعه وأذيقه من يدي ألذ الطعام.. كان عمر أبي يزيد عن عمر أمي، وها هي لا تقدر على فراقه ولا تنساه..

اختفت الشمس منذ دقائق وراحت لتنام في بيتها خلف الجبل.. وارتفعت المياه، ورفع العيال أطراف ثيابهم كي لا تبتل، فرحين بالمياه، معهم حق، يا أمي معهم حق، المياه خير ونعمة، سيفرح أيضاً بها بط النجع، سيسبح كثيراً، يا ربي بل هذه واحدة هبطت تشارك الأطفال المرح.. وهذا الطفل العاري تماماً، جميل لطيف ولا يرد على نداء أمه..

الرؤية كادت تنعدم، فماذا ستفعل أمي والظلام وشيك؟!.. وهذا الصوت؟! انه الحفار.. يتحرك، ذراعه الطويلة تتحرك، جاروفه يهبط ماذا يفعلون؟؟

ـ حذار يا أمي.. حذار

تتكيء على الشاهد، تحضنه بيدها الخالية، تستند إليه...

والجاروف يهبط فوق كوم التراب، يكبش ويرتفع، يعلو، ينفتح فكاه.. ماذا يفعلون؟!.. التراب يتساقط متناثراً مع الهواء، ينهال فوق رأس أمي وعم علي، الضرير يسعل، وأمي والعفار يحيطها ويتساقط فوق ملابسها وطرحتها وكل مكان، لا أكاد أراها! يقتلونها هكذا!!

التفت إلى الفلاحين:

ـ الحقوها.. افعلوا أي شيء.. تحركوا

صرخت في الشابوري:

ـ يا شيخ البدو تصرف

أين هي؟!.. لا أراها!!.. الظلام والتراب.. هتفت في سامي:

ـ يقتلون أمي يا سامي!!.. يا مجرمين!!.. يا قتلة!!

* * *

الفصل السابع

عذراء الغروب



شقشقة الفجر

أفكار غير مرتبة عن قلوب الناس وأحوالهم

لطبيبة المشروع / سوسن (٢٩ عاماً)

لها قوة تحمل تتحدى جميع كتب الطب!!

طوال النهار وهي لم تهمد ولم تكل، لكني كنت أعرف أنها تعبة جداً. كان الاعياء بداخلها ولم يلحظه أحد، توارت مظاهر ضعفها خلف غضبتها الشديدة، وتحول عنادها إلى قوة بدنية غير طبيعية لمن في عمرها..

ملتاثة العقل دون شك، وإلا ما كانت تتشبث بهذا الجنون بقبر رجل نهشه الدود وتحول منذ سنوات إلى تراب.. والآن يجرف الحفار كل القبر والأرض التي تحته ليتصل طرفي المأخذ، ولتواصل المياه تدفقها حتى حضن الجبل، ولتتلقاها ماكينات الرفع وترفعها إلى الجبل حيث مساحات شاسعة جاهزة للزراعة وفي انتظار الري..

أي نوع من أنواع الحب هذا الذي دفعها إلى تحمل عناء التوتر وسخونة الشمس وصيام اليوم كله، ومهانة النهاية؟!.. وما ذنب هذا الكهل الضرير الذي لازمها المهزلة ويجلس الآن أرضاً إلى جوار سريرها، مثل كلب عجوز ضخم أضاع الزمن نظره وأفقده أنيابه!.. عندما وقف بدا عملاقاً كثيف الشعر بشارب أبيض ضخم، مثل كائن

خرافي ان هو فرد عوده طاول سعف النخيل ارتفاعاً. . أمره مريب حقاً، وأكاد لا أصدق أنه يتحمل كل هذه المهانة وفاء لحبيب سيدته الراحل؟!. . في الأمر سرا!

والابنة المسكينة خمرية، أنهكها الاجهاد العصبي إلى حد لا تتحمله سنها، توسلت إلى العجوز عدة مرات ولم تلن، فهل حب المرأة للرجل يطغى أحياناً على أمومتها؟؟. . شاحبة البنت الآن، طمأنتها على أمها الراقدة فوق السرير، لن تصحو من اغفاءتها قبل ساعتين على الأقل. . الضرير ركن جسده على الحائط وغفى هو أيضاً، مسكين، أي نوع من الوفاء هذا الذي يحركه ـ أكاد أشك؟!. . ولكن هل يمكننا أن نعرف بالضبط كيف يفكر العجائز؟!. . لهم منطقهم الخاص جداً ودوافعهم الشديدة الخصوصية والتي قد تكون سراً مغلقاً عليهم. .

البنت جميلة رغم شحوبها، تتأمل الصورة المعلقة، أظنه والدها. . أهذا هو سبب كل هذه المهزلة؟!. . مستدير الوجه بعنق سمين قصير، أبيض كأنه خليط تركي على مصري ولعله من سلالة أحد المماليك الشراكسة. . لا يستحق في رأيي كل هذا العناء، ولكن من يدري، الرجل لا يقاس بمظهره، وابنته تتأمله ثم تجلس لكنها تواصل تأملاتها إليه. . كادت أن تنهار قبل الغروب لولا أن سارع سامي هابطاً إليها وأخذها إلى ظل النخلة القصيرة. . ورغم انشغالها بأمها وكمدها وتعبها وعشرات العيون من حولها إلا أنها رمقته بنظرة رقيقة للغاية!!. . هذه المراهقة النحيفة، أعرف معنى نظرتها، وأظنها تمنت لو أسندت رأسها إلى صدره. . كنت مراهقة مثلها وأعرف هذه الأحاسيس، عمره ضعف عمرها ولعله أثار لديها الحنين إلى الأب، الرجل والأب معاً. . عجيب

سامي هذا، لقد أثار في داخلي الحنين إلى الابن، الرجل والابن معاً!!

لن ينقذ هذه المراهقة من جنون أمها إلا ارتباطها بشاب تحبه وتتعلق به وتحول إليه عواطفها.. وسامي ليس من عمرها ولا هو قريب من تفكيرها أو ثقافتها!

لأمها عناد مثل عناد الأطفال، كلما شاخ الإنسان كلما انتكس إلى الطفولة، بعض الشيوخ يبولون على أنفسهم كالصغار!.. تشبثت المرأة بالقبر كطفل يدافع عن لعبته أو دميته، وعناد الأطفال ينتهي عادة بكسر اللعبة، وهكذا انتهى عنادها..

كدت أضحك رغم مأساوية الموقف،، بداخل كل مأساة ملهاة.. وكان علاج المشكلة من نوع تصرفها، بسيطاً ساذجاً، تفتق عنه ذهن سامي ـ سوف يكون أباً مدهشاً سامي، يعرف كيف يتعامل مع الأطفال ـ ناداه الألفي وناداني وقال:

ـ ماذا نفعل؟؟ دبراني..

اندفع سامي:

ـ التدابير لله يا كبير

فكاد الألفي أن يهجم عليه لولا أنني قلت:

ـ دعها وستتعب، وسيقوم التعب بفعل المخدر، وستنام مهما قاومت..

ـ تبدو في يقظة المقاتل!

ـ ستغط في النوم كالطفل بعد بكاء طويل.. منهكة هي رغم مظهرها هذا.. أصبر قليلاً..

ـ صبرت عليها اليوم كله. .

قال سامي:

ـ هناك حل ولكن عليك أنت أن تقرر، أنت الرئيس. .

ـ تكلم ولكن لا تهزل. .

ـ ار بكها. .

ـ كيف؟؟ تكلم. .

ـ باستعمال الحيلة. .

ـ كيف؟؟ تكلم. .

ـ ار بكها وقتاً يكون كافياً لانتزاع البندقية منها. .

ـ كيف؟؟ كيف؟؟

وهبط جاروف الحفار وكبش بعض التراب ثم ارتفع وعلا شاهقاً فوق رأسها، ومال ببطء ليتساقط التراب منه، وابل من التراب كرذاذ المطر، ورفعت رأسها لترى ما يحدث وفاجأتها أمطار الرمال والتراب، فأغمضت عينيها وتركت البندقية لتبعد الغبار عنهما ـ وابنتها تولول باكية ـ وضريرها يعود إلى صراخه المضحك:

ـ اقتلي زعيمهم، اقتلي زعيمهم. .

وكتمت الضحك ـ رغم شفقتي عليهما ـ وانتهز الناس ربكتها وهجموا، وبعد أخذ البندقية حملوها عنوة وهي تحتضن شاهد القبر فانخلع معها. وفقدت الوعي ويداها متصلبتان من حوله، وحملوها بعيدا وجاؤوا بها إلى سريرها هذا. . ولما وجد الضرير نفسه وحيداً ظل يصرخ:

ـ أين أنت يا هانم؟؟ أين أنت يا أم خمرية؟؟

إلى أن جاؤا وأخذوه ليرقد إلى جوار سريرهـا!! . . في هذه الغرفـة الكئيبة. . وجئت وأنا أعرف تشخيص حالتها مسبقاً، غشي عليها بسبب الارهاق الشديد والانفعال الحاد. . وكانت بحاجـة إلـى النـوم وبعض المقويات والأدوية المهدئة، لم تتناول لقمـة طوال اليوم ـ العيال فقـط كانوا يقضمون في كسر الخبز الجافة دون غموز، ولهذا فهم يسمنـون دون قـوة لنقص الفيتامينـات والبروتينـات ـ ونحن أيضاً جعنـا لولا أن الحفـار في الخارج يقـوم بعمله في تعميق المجرى مكـان القبـر، دقـائق قليلة وكان قد سكت بعد إتمام المهمة.

انتهت اللعبة وكانت قد سخفت منذ ساعات، وجعلت الألفي عصبياً كالثور الهائج، فراح يسب المرأة وعيال الفلاحين والذبـاب الـذي كان يضايق صلعته. . يتهم سامي دائماً بادمان الكلام مع أنه أكثرنا جعجعة وطنطنة عن الانسانية وعن الفلاحين ولكن على الورق ويسهر كل ليلـة يدبج تقارير العمل اليومي ويدون ملاحظاته، كل شيء عنده يتحول إلى ملفات وأرقام، قد أتسلل يوماً إلى مقره وأسرق يومياته هذه وأنشرها في كتاب كقطعة فذة من الأدب الهزلي!!

أخبرني سامي أنه عند بداية المشروع شرح له ضرورة القيام بحملة توعية «لاخوانه الفلاحين» فأجابه مستنكراً:

ـ لماذا؟؟ . . نحن مهندسون ولسنا رجال سياسة!!

كيف ستكون حكايتي مع سامي؟ . . هل سيظل يهرب منـي؟؟ لن فلته. .

أف من رائحة هذه الغرفة، أكرهها كما كرهت الرمال. . منذ أول يوم

هنا وأنا محاصرة بالرمال، بالرجال والرمال، الأصفر الباهت في كل مكان. . اغتظت وشعرت بالاختناق وندمت على قدومي، وسئمت محاصرة عيون الزملاء حيثما ذهبت، وأهالي القرية وبدو الصحراء، أظنهم فسروا وحدتي بين الرجال على أنني عاهرة، عاهرة تحترف لطب!! . . بل لقد قالتها هذه العجوز الراقدة وأمام الجميع، منذ ساعات تهمتني علناً أنني أضاجع كل ليلة مهندساً!! . . ولعل حسني الظن منهم جعلوني حكراً على الألفي لأنه الرئيس، يا للقرف!!

حتى عمدتهم المقزز، في المرة الوحيدة التي صعد معسكرنا فيها لم ينزل نظراته عن صدري ـ لعل صدري جميل، فلماذا لم يشد انتباه سامي؟! ـ وفي اليوم التالي تمارض وأرسل في طلبي، ورأى الألفي أن أذهب إليه لدواعي أمنية، ولما عرى بطنه رأيت أكياساً دهنية هائلة مترهلة في كل مكان، نصف كرة ضخم مليء بالشحم والقرف وعطر مقزز. . وظل يلف ويدور في الكلام، ويتذاكى يريد إيقاعي. . وقبل انصرافي طلب مني الحبوب المقوية، لم أفهم قصده بسرعة، ثم أدركت أنه يريد بعض هرمونات تقوية القدرة الجنسية!! . . ولعله كان يحلم باستخدامها معي أو مع عذارى ذمامه؟! ـ فالنتينو النجع المكرش ـ أنه يفضل العذارى لأنهن غشيمات، والمؤكد أنه لم يعد بقادر على اشباع مرأة ناضجة!

لم أعتقه من أجر الكشف مضاعفاً وحسب أعلى أسعار القاهرة، ولم أكسر بخاطره وقبلت الديك الرومي الذي عرضه هدية، وكذلك جاملته فلم أرفض البيض والفطير المشلتت. . وكانت وليمة في المساء شبعنا

منها جميعاً وسعدنا. . وعندما علم سامي برغبته في الهرمونات قال في جدية ورزانة غامزاً بعينه:

ــ بعد هذا الديك الرومي العظيم لا يجوز أن تردي له رغبة، والتساهيل على الله!

فأرسلت له الحبوب الملينة، ومن المؤكد أنه لازم «التواليت» فترة طويلة أفرز فيها أحلامه وشبقه وبلاهته!!

قبحاً للتخلف، للجهل والفقر. . وماذا تجدي أدويتنا في جسد مريض أهزله الفقر وابتلاه الجهل؟ . . لست نادمة على مجيئي إلى هذه المجاهل - ويكفيني أنني عرفت سامي - لكنني قرفت. . تقاعس الرجال فجئت أنا. . وكان اندفاعا أهوج ما بدر مني في مؤتمر أطباء المحافظة، انسحبت من لساني وهاجمت افتقار الأماكن النائية إلى الخدمات الطبية. . فرد المدير بأن الأطباء يتهربون من العمل هناك وبأن من يكلف منهم بالذهاب سرعان ما يتمارض. . وقال:

ــ واني أمامك أعلن عن حاجتي لطبيب أو أكثر للعمل في الجبل الغربي. . الموافق يرفع أصبعه. .

وتخاذل الستون طبيباً لأقول:

ــ أنا أذهب. .

ــ تقولين أنا لعلمك بأننا لن نرسلك، الجبل مكان للرجال

ــ سأذهب. . وأنا بمائة رجل ولن أتمارض

ضحكوا جميعاً هازئين. . ثم حملق في:

ــ حماسك زائد، فهل تعتنقين أفكاراً متطرفة؟!

رشقته بنظرة ثابتة متحدية، فمطشفتيه ولعله ارتاب أن يكون السبب طمعي في بدل طبيعة العمل المضاعف!!

لكني سرعان ما ندمت ـ من اليوم الثاني أو الثالث ـ لولا وجود سامي الذي نفرت منه في البداية بسبب مرارته وسخريته من كل شيء، ثم اكتشفت فيه انساناً طيباً وديعاً لطيف المعشر، صادقاً عطوفاً، يواجه أحزاناً دفينة بنبل رائع..

سألته لماذا قبل العمل في هذا المكان الحار المرهق.. فقال لا أعرف ان كان جاداً أم هازئاً:

ــ لأنني أكره اللون الأصفر..

وعندما طالت أحاديثنا واطمأن لي، حكى عن زوجته السابقة التي لم يدخل بها، بسببها ذهب للعمل في السعودية مهندساً معاراً كي يجمع من أجلها المال، كتب الكتاب ثم رحل مؤجلاً الدخلة إلى ما بعد تجهيز الشقة.. لكنها كانت ملولا فلافت على رجل آخر له جاه وثراء.. بينما مكث المسكين في غربته عامين يحلم بها ويناجيها في كل خطاب يرسله، ويتخيل بسمتها مع تزايد مدخراته، ويستحضر صورتها إلى خياله، كل مرة في ثوب بديع فيه من جميع ألوان الطيف عدا الأصفر الذي كرهه من كثرة محاصرته له، ومن شدة وميض الشمس الحارقة انعكاساً فوق حبات الرمال.. ثم زاد كرهه لأنه يذكره بغدر الزوجة.. قلت له:

ــ رغم هذا قبلت العمل في مشروعنا هنا، حيث صفرة الرمال ولا شيء غيرها، وهذا غريب..

ـ لا غريب إلا الشيطان، عملي هو تحويلها إلى الأخضر عن طريق زرعها.. ولطالما حلمت وأنا في السعودية بكل شبر من هذه البلاد، أرض الود والزرع والنيل والحضارة والناس الطيبين..

سألته:

ـ هل عانيت كثيراً في غربتك؟؟

ـ ماذا تقصدين بالمعاناة؟؟

ـ كأن يكون أحد السخفاء قد عايرك!

ـ عايرني؟!

ـ لأن هدفك كان جمع مال وفير لم تجده في بلدك..

ـ لو لم يكونوا في حاجة لي لما قبلوني يوماً واحداً.. أعطيتهم عملاً يعادل ضعف نقودهم ويزيد.. وعلى كل حال فقد كانوا جميعاً مهذبين، كان الاحترام المتبادل هو معيار العقد بيننا..

أطرقت واثقة من كلامه.. ثم سرعان ما عاد ساخراً:

ـ المعاناة الحقيقية كانت من قسوتها، المرأة التي طلقتها!

ثم انطوى على نفسه وأحزانه.. ولعله لم يعد يثق في صنف النساء.. مسكين، لو قابلته قبلها لوقعت في غرامه وتزوجته ولم أكن لأتخلى عنه قط أمعقول أنني كنت أتخلى عنه؟!.. يندر أن يتقابل الشخصين في الوقت المناسب والمكان الملائم، يتأخر أحدهما دائماً، وتلك هي لب المهزلة الأرضية.. للحياة مسارات عجيبة وللحب دروب مفاجئة و بحار معاكسة، مثل طائر فريد يطير أبداً ولا نعرف أين ومتى يحط ولا كيف يرفرف، يرفع ويذل ويقوى ويدمر ويدفع إلى الاخلاص ويجرف إلى الخيانة، يمتلك وجدان الانسان وهو يعمل أو يأكل أو

يلهو، فجأة أو رويداً، لا قاعدة ولا مقياس ولا عرف أو تقاليد، وقد يكون سراباً خادعاً كما حدث لسامي الحبيب مع زوجته، وقد يأتي حقيقياً صادقاً بديعاً كما أشعر الآن نحوه. .

قلت أواسيه:

ـ لا يعني هجر زوجتك لك أن كل النساء سيئات. .

قال:

ـ أعرف. . معظم الزوجات وفيات صبورات على قدر كبير من الاحساس بالمسئولية، أعرف واحدة بالتحديد كان زوجها معاراً معي. . ما أن سافر حتى كفت عن الذهاب إلى الكوافير وعن وضع المساحيق، وظلت هكذا حتى عاد إليها، وعندها ارتدت له أزهى الثياب ووضعت الماكياج وصففت شعرها بالتسريحة التي يحبها، وكأنها تزف إليه من جديد. . لكنها نوع نادر. . أظن هذا!!

ومع لمعة عينيه همست متوددة:

ـ أنت لا تكره كل النساء اذن. .

ـ بالطبع لا. .

وكدت أسأله «ولماذا لا تتزوج؟؟» ولكنني خشيت أن يفضحني صوتي. .

العجوز تتحرك، تتجه إليها خمرية ـ ان كان قلبها قد تعلق بسامي فسوف تصدم، لكنها صغيرة وحلوة والمستقبل أمامها ـ الأعمى ما زال مستغرقاً في اغفاءته والمرأة تتقلب ثانية لكنها لن تفيق إلا بعد وقت، ولو أفاقت ونظرت من هذه النافذة ـ مثلما أنظر الآن ـ فستغتم وستعاود النوم،

هروباً هذه المرة من الواقع الذي لا تريده. سترى ترعة لم تكن موجودة من قبل، والفلاحين ما زالوا متجمعين ـ الساعة جاوزت الثانية صباحاً ـ بعضهم أحضر لمبات الجاز، المياه مرتفعة، أظنها كادت أن تصل إلى مستواها في بحر يوسف.. والحفار ساكن وقد انتهت مهمته، وسامي ليس هنا بالطبع ولا الألفي، لعلهم جميعاً عند الجبل حيث ماكينات الرفع.. وهذا الرجل محني الظهر، يا عجبي انه حسن!! ـ مسكين يا حسن ـ وما كنا نعرف بالأمس أننا نزفه إلى اللوعة والمهانة.. أظنه هبط من الجبل عند العصرية، بعد أن أفاق من المخدر الذي حقنته به، وظل بعيداً عن الناس، ينظر ولا أظنه يرى، لعله كان ينظر إلى داخله يسترجع ما حدث ولعله كان يتشاجر مع نفسه، وربما فكر في الانتقام من غرباوي المقزز، لو قتله لوجدنا له العذر.. كيف سيتصرف مع زكية؟

منذ ساعات وقبل المغيب بقليل رأيت زكية تأتي، مترددة زائغة العينين تبحث عن زوجها، رأته فجفلت ثم سارت نحوه ثم ترددت، وبمجرد أن رآها هب واقفاً، خلته سيضربها لكنه استدار وابتعد، فتهدلت البائسة وانهارت متكومة في مكانها، لعلها بكت ـ جمعها المكان الواحد مع حسن ومع العمدة الفظ ـ فأين هي الآن؟؟.. لا أظنها باقية حتى هذه الساعة، لعلها في الدار تأمل عودة الزوج، حسن الذي يتعثر محتاراً، يتلفت حوله كأنه لا يعرف الطريق.. كانت زكية تجسيداً لمأساته، وهو تجسيد لمأساة القرية كلها. وعندما عاد إلينا ليلة الأمس يأ مهاناً أعطيته المهدىء لينام، وفكرت متأثرة:

ـ ان كانت زكية بنت شريفة حقاً فقد كان عليها أن تمتنع عن العمل بعد ما حدث، هذا مع افتراض حسن النية بأنه كان اغتصاباً..

لكن سامي قال في هدوئه الحبيب:

ـ وماذا كانت تقول لأمها وأخيها؟! وبأي عذر كانت ستمتنع؟!.. لو خبرتهما لربما تآمرا على قتلها..

ـ هذا أفضل..

ـ لا تنسى فقر أسرتها، أين تعمل ولا مصدر للرزق إلا عند غرباوي؟؟.. ابحثي دائماً عنصر لقمة العيش، كان سيمنع الرزق عن حيها أيضاً!!

وأكاد أجزم بأن العمدة القذر قد ضاجعها يومياً بعد ذلك، ومن الجائز أنها قاومت في كل مرة وأنه نالها في كل مرة، وأنها كانت ترفضه بعقلها وبخوفها من الفضيحة وفي الوقت نفسه تقبله وتتمناه بغريزتها وبفورة بابها..

قلت لسامي:

ـ لا تنس أنها انسانة أيضاً قبل أن تكون ظرفاً اقتصادياً..

فحملقت عيناه وسرحت أفكاره، وأحسست أنه يحسد غرباوي على وزه بالعذارى.. الوغد!!

ماذا سيفعل حسن معها؟!.. أمامه ثلاثة حلول: أن يطلقها، أن يصفح عنها، أن يقتلها.. وأرحم لها أن يقتلها ولا يتركها للفضيحة.. المسكينة، ستذبحها عيون الأهالي كل يوم مئات المرات!

فقرهم يفوق التخيل، وقد لمسته مجسداً داخل أكواخهم، صدمتني رائحة العطن في مدخل دار ـ أقصد كوخ ـ الفلاحة التي اسمها سعدية..

وكنت متوجهة إلى المعدية في اجازتي إلى المنيا وإذا بزوجها قصير القامة يتوسل إلي أن أتولى توليد زوجته، وكاد أن يبكي وقال أن الداية عند البدو منذ الصباح.. فتوجهت متضررة وكادت رطوبة داره أن تخنقني، لكني مع خروج الطفلة وصراخها الأول انتعشت ونسيت العطن ورحت أتأمل وجه الأم المبلل بالعرق، وأعجبتني تقاطيع وجهها - وظلت سعدية بعد ذلك تطاردني عارضة علي خدماتها ولو غسل ملابسي - والظريف أن زوجها تقدم مني في حياء ماداً يده ببعض النقود، نظرت فوجدتها أوراقاً صغيرة فئة الخمسة والعشرة قروش، ضحكت وسألته عن العدد:

- خمسون قرشاً وتستحقين ثقلك ذهباً

شكرته واعتذرت عن نقوده، فسألني عن اسمي.. لم أفهم قصده لكني قلت:

- سوسن..

بوغت به وسألني عنه ثانية، ثم قال أنه سيسمي ابنته على اسمي، وأرضاني هذا جداً، لكني بعد أسبوع علمت انه أسماها بدرية على اسم المرحومة أمه.. وقال في خجل:

- لم يطاوعني قلبي على تسمية ابنتي بهذا الاسم الغريب سوسن.. كيف يعرف أن سوسن اسم نوع من الزهور البرية؟!

هذا صوت آلات الرفع، بدأت تعمل، الفلاحون يجمدون في أماكنهم ثم يسارعون ناحية الغرب، يجرون والأطفال بين أقدامهم.. بل وحسن أيضاً يمشي في أعقابهم، أخيراً تخلص من حيرته وعرف وجهته وكان زائغ العينين كالطفل الضال!!

حركت الآلات جميع الأهالي، وسيجدون هناك الأضواء الكهربية تضيء السفح، وسيجدون الآلات الضخمة تهز الجبل بحركتها العظيمة، وربما وجدوا البدو قد سبقوهم.. سيشاهدون حفلاً ساهراً حتى الشروق تندفع فيه المياه على عزف الآلات الصاخب، وشقشقة الفجر تتسلل..

وهذا الصوت من خلفي، الضرير يستيقظ، ينصت، فتح جفنيه وكأنه سيرى!!.. العجب يهزه، يمد يده يتحسس السرير، يلمس المرأة ويطمئن إلى وجودها.. المرأة تفتح عينيها، تتلفت حولها كأنها عائدة من كابوس فظيع.. تقطب منصته لهدير الآلات.. ثم تراني، تحملق بعينيها لواسعتين، تلتفت إلى ابنتها، تجاهد لتتكلم:

ــ من هذه؟؟

ــ الطبيبة

دققت النظر ويبدو أنها تذكرتني، جاهدت تقول في أنفة:

ــ أعطوها أجرها واصرفوها..

خمرية تنظر لي، محرجة مستنجدة.. يا بائسة اطمئني:

ــ اطمئني.. أمك بخير الآن، زال الخطر ولم تعد بحاجة لي..

ــ ولكن!!..

ــ هي فقط في حاجة إلى النوم والغذاء وهدوء البال.. ولا أقبل جراً..

ــ من فضلك..

ــ لا أقبل أجراً..

أف من هذه الرائحة، لقبر زوجها رائحة أطيب . . وداعاً لغرفتك يا سجينة الماضي، لدارك كلها. . كأنه سجن، كئيب قاتم راكد الهواء! . . وشقشقة الفجر في الخارج والهواء، وفي الخلاء يفصح الفجر عن بزوغه مبكراً. . ومسكينة خمرية، تعيش مع أمها في صمت بلا حوار، لا يربطهما أي موضوع مشترك. . أم ملتاثة وسوف تطيح بتوازن ابنتها. . وها هي تأمرها:

ـ بنت يا خمرية، أغلقي النافذة يا بنت. . بالشيش والزجاج. . أصواتهم تقتلني. . قلت لك أغلقيه. .

كان سامي على حق عندما قال ان الانسان عجيب، كم أتمنى لو كان إلى جواري الآن. . سأذهب إليه. .

* * *

الفصل الثامن

عذراء الغروب



التقرير

بعض الأرقام الصماء والآراء الخالصة

لرئيس المشروع مهندس / الألفي (٤٩ عاماً)

في النهاية يربح الفلاح دائماً. .

«الحياة جميلة والمستقبل باسم، ومهمتنا ادخال السرور إلى قلوب اخواننا الفلاحين». . قلت هذا في الفيلم الذي تم تصويره والذي سوف يعرض في دور العرض والتليفزيون. . وقد استصلحنا أرضاً طولها أربعين كيلو متراً وعرضها ثلاثة كيلو مترات أي ما يعادل ٢٨٠٠٠ فداناً، ستوزع كلها عليهم. . هنا مسقط رأسهم وما نحن إلا عابرين، نحن عمال تراحيل نستصلح الأرض لهم ثم نتركهم إلى مكان آخر ونعيد الكرة. . وكل هذا بفضل توجيهات السيد الوزير. .

في النهاية يربح الفلاحون، دائماً. . وغداً سأكتب تقريري المبدئي:
لقد تم كل شيء في موعده المحدد وطبقاً للخطة المرسومة تماماً، وما ان تدفقت المياه غزيرة وبدأت تصل إلى القرية حتى هللت جموع الفلاحين والبدو وهم يقدمون لنا باقات الزهور (الأفضل التغاضي عن حكاية الباقات هذه). . ثم مرت المياه دون عائق (وسأضع خطاً تحت كلمتي: دون عائق) متدفقة إلى حيث ماكينة الرفع، وقبل الفجر كان المأخذ قد امتلأ حتى حافته فشغلنا الماكينة التي هدر صوتها يصدح في آذان اخواننا

الفلاحين كالزمر البلدي، فكبروا وهللوا هاتفين للحكومة ورئيسها وخصوا بالهتاف السيد الوزير المختص. .

كل شيء على ما يرام والمشروع قد نفذت كل خطوة منه في موعدها. . والحياة جميلة والمستقبل باسم (من الذي قال هذه العبارة؟؟). .

ظلت الماكينة ترفع المياه في كفاءة تامة إلى القناة المبطنة بالاسمنت التي شيدناها فوق الجبل، ونمنا ونام الفلاحون والبدو قريري العيون لنصبح وقد ملأت المياه هذه القناة المبطنة، فأدرنا ماكينة الضغط العالي، التي أخذت تشفط الماء وتدفعه بضغط عال (يعادل اربعة أضعاف الضغط الجوي) إلى مواسير الاسبستوس، ومنها إلى المواسير الألمنيوم المتحركة والمركبة في نهاياتها الرشاشات. . ودارت هذه الرشاشات تنثر الرذاذ في دائرة كاملة، لتروي كل ٣٠ رشاشة ٢٠ فداناً في اليوم الواحد وبمعدل ١٦٠ متراً مكعباً من الماء لكل فدان. .

وهكذا نحقق الهدف الأول للدولة وهو اسعاد المعدمين (ولكن كيف نسيت اسم من قال: ان الحياة جميلة والمستقبل باسم؟!). .

اشتقت بالفعل إلى السرير اللين وإلى حضن زوجتي وشقاوة ابني، اشتقت إلى الراحة وإلى الكسل، الرفاهية لذيذة (ومنافق من يقول غير ذلك) ويكفيني قرف الرمال وجهل المهندسين الشبان. . سوف لا أخرج من بيتي أسبوعاً كاملاً، ألعب وأمرح مع الولد العفريت حمادة: يا ولد كف عن البكاء، يا ولد كف عن الصراخ ستنفجر رأسي، ويرغمني بصراخه على أن أنحني (أنا الألفي الذي يتحكم في العشرات) أنحني له

وأحبو على أربع ، ليمتطي ظهري هاتفاً: شي حا شي حا. . يا ولد عيب أنا أبوك، موظف كبير عالي المقام:

ــ شي حا. . شي حا. .

ــ يا ولد ان كان أبوك حماراً فمن تكون ومن تكون أمك؟!

ــ شي حا. .

ــ يا ولد من أترأسهم لديهم أولاد أكبر منك. .

ــ شي حا. . شي حا. .

ــ يا ولد أنا حولت الصحراء الى أرض زراعية. .

ــ شي حا. . شي حا. .

ولن يعدم الأمر مهندساً يرسل ضدي تقريراً إلى السيد الوزير. . وكفاني ثرثرة المهندس سامي واتهامه لي بأنني قد اكتفيت بدراساتي العلمية فقط مهملاً الدراسات الانسانية الأخرى!!. . هل يريدني أن أكون مثله؟!. . أنا مهندس وزوج ولي ابن أخاف عليه. . سر ما حدث في رأيي راجع إلى الجهل وإلى مكر الفلاحين، لقد جنحوا إلى الانطواء والمراقبة عن بعد إلى أن تبينوا اتجاه الريح ، وعندئذ خرجوا وشاركوا. . وهذا ما جعلهم ينفرون بعيداً عنا لفترة طويلة، خشية أن ننهزم أمام الصحراء وعندها لم يكن لينالهم سوى انتقام غرباوي عمدتهم السابق!!. . وبيني وبين نفسي فانني أعذرهم!

لكن المهندس سامي أصابني بالسأم من كثرة ترديده بأن هذه الأرض عذراء، وبأننا نحن رجال المشروع سوف نفض بكارتها ونجعلها تنبت الزرع والحياة. . وهو تشبيه لا بأس به ولكنه تشبيه جنسي، ألم يجد شيئاً

غير مسألة فض البكارة للأرض العذراء؟! . . لكنـي بينـي وبين نفسـي أشفق عليه، أعرف مأساته مع زوجته التي طلقها وهي عذراء فجعلـت موقفه بين الناس حرجاً، الأصدقاء والجيران والأقارب. . ولعـل من لا يحبونه أشاعوا أسباباً كاذبة لهذا الانفصال، لعل بعضهم اتهمه بضعف مقدرته الجنسية، أو بثقل ظله الذي جعل زوجته تنفـرا! . . لم يتحمـل نظراتهم لأنه طيب وحساس، وهذا هو السر وراء اصراره على الانضمام للعمل معنا. . جاء موعد اجازته الأولى ولم ينزل الى المدينة، وعندما حل الموعد التالي بدا أنه لن يستفيد منـه، فرثيت لحالـه وأمرتـه بأخـذ الاجازة، ولولا اشتياقه لرؤية أمه لما قبل، عندما كانت تأتي سيرتها في أحاديث المساء كان صوتـه يرق ويضحـك في سعادة الأطفـال، بينما في باقي الأوقات يغلب عليه الحزن والألم، ويبدو كما لـو كان قـد تأزم من جميع النساء، ولو كان عاقلاً خاضعاً للمنطق لأدرك أن الدكتورة سوسن تحبه، ولو كـان صريحـاً مع نفسـه لاعترف بـأنه ميـال إليها. . لكنـه في حاجة إلى من يأخذ بيده ليخرجه من محنته!!

وأنا بحكم طبعي وتربيتي واستقامتي أكره التآمر، لكني ـ وأثناء العمل في المشروع القادم ـ سوف أحيك مؤامرة أكرس لها كل ذكائـي، سوف أدبر وأهيء كافة الظروف والملابسات التي تدفع هذا الولد للزواج من هذه الطبيبة. . هذا ان لم يسبقني هو ويفعلها طوعاً!!

هناك أيضاً المهندس توفيق ـ مصيبة ألعن ـ أجـازات مرضية بصفـة متواصلة ، وسامي يقول أنه تمارض، فماذا أفعل وشهادته المرضية سليمة وصحيحة مائة في المائة؟!

وباقـي المهنـدسين: العيب الشامـل فيهـم أنهـم يفـكرون بعقلية المرؤوس، والمرؤوس ميال إلى التفكير العاطفي، لذلك فليس بامكانهم فهم تصرفاتي لأنني أفكر بعقلية الرئيس، أنا عندي الأرقام أما هم فعندهم عاطفـة المصـريين وانفعالهـم الوقتـي، وأنـا أفهـم اللمحـة وهـي في الهواء!! .. وبيني وبين نفسي فاني أعذرهم!!

وعندما جاءني غرباوي العمدة السابق ودخل على دخلته المـاكرة، سلامات ومدح واعجاب فهمت أن وراءه شيء.. ثم أخذ يناور ويعرض خدماته من خيرات الريف، وعرض أيضاً فلاحة تقوم على خدمتي (ولم يحدد ان كانت بكراً أم لا).. فشككت في غرضه وطلبت منه أن يدخل في الموضوع مباشرة، وكنت أعـرف أنـه هو الـذي منـع الفـلاحين من الصعود إلينا في موسم القطن وأرغمهم على الجني في أرضه وفي أرض المرأة المعادية للمشروع.. وبدأ يتحدث وعينه على طبيبتنا، وأنا أعرف أمثاله: يخاف ولا يختشي، فعاملته بجفاء حتى انصـرف.. لكن أحـد المهندسين الشبان أفقدني أعصابي بقوله:

ــ للقبور قدسية خاصة عند المصريين منذ أيام الفراعنة، وعلينا أن نتذكر ذلك جيداً..

صرخت فيه:

ــ أية قبور وأية قدسية.. أمن أجل الموتى تنحرف قناة الأحياء؟؟

فسكت.. وانبرى سامي في وقاحة:

ــ لكن هذه ليست اجابة

ــ ان لم تكن هذه اجابة فماذا تكون: بطيخ؟!

ــ عبارة انشائية طنانة!!

بعد الليل تشرق الشمس (هكذا قلت في الفيلم) وقد أنجز المشروع بحذافيره وفي مواعيده المحددة على الورق.. والفضل كله يرجع إلى حزمي و رجاحة تفكيري المختفية تحت صلعتي هذه (والتي أعلم علم اليقين أنهم يتندرون بها).. ان العجلة تدور دائماً، والحياة جميلة والمستقبل باسم (فمن قال هذه العبارة؟؟.. آه.. أظنني أنا الذي قلتها، ومن غيري؟!.. قلتها في الفيلم)..

ولم أكن كاذباً.. ظهرت الحياة بالأرض وبدأت تخضر، ولعل آثار الفراعنة التي عثرنا عليها (وبلغت عنها مصلحة الآثار بخطاب موصى عليه) توحي بأن ما زرعناه لم يكن سوى جزء من الوادي القديم.. ولعل ذلك كان أيام الملك مينا.. وان كان هذا صحيحاً فمعناه أننا لسنا أول من يخصب هذه الأرض، وعلى هذا فلا نحن فضضنا بكارتها ولا هي كانت عذراء (ويا لخيبة المهندس سامي وليكف عن تلميحاته الجنسية).. كل ما هنالك أن الأرض الصالحة للزراعة كانت مختبئة تحت طبقة رملية غير سميكة، فلما أبعدنا عنها الرمال وجئنا إليها بالمياه اخضرت كما قلت وظهرت بها الحياة كما وعدنا.. ثم سلمناها أخيراً إلى الإدارة التي ستتولى رعايتها بصفة دائمة، أما نحن فالى صحراء جديدة.. أننا مهندسون تراحيل.. وبيني وبين نفسي فاني أحب هذا العمل رغم كل شيء!

السيارات تتحرك بنا الآن، في طابور طويل منظم.. والفلاحون قاموا بتوديعنا وداعاً لم أحلم به أبداً، قبلوني قبلات العرفان، وأحسست بصدقهم حتى كادت العبرات أن تغلبني.. وكان دار المرأة المعادية للمشروع مغلقاً تماماً كأنه مهجور، عدا نظرة عابرة من فوق سطحه للابنة

البائسة المسكينة، أظنها كانت تبكي وأظنها حاولت أن تلوح بيدهـا. . أتمنى أن تحصل سريعاً على عريس ينتشلها بعيداً. .

والبدو بخيولهم وجمالهم يتسابقون من حولنـا مطلقين الرصـاص، أقسموا أن يصحبونا حتى بحر يوسف. . وكل العيون من حولنا تحاصرنا بالحب، جميل أن يكون الإنسان محبوباً. . والعجيب أنني أظل في كل مشروع نافراً من الفلاحين حتى تأتي ساعة الوداع ويغمرونني بعواطفهم فلا أملك إلا أن أحبهم، وهذا يجعل ساعة الوداع قاسية!. . ولأن هذا المشروع هو ابني آخر العنقود لذلك يعز علـي فراقـه، ولا يعزينـي إلا فرحتي بالعودة إلى زوجتي وإلى الولد حمادة العفريت. . وشي حا شي حا. .

نظر سامي إلى الجبل بنبته الأخضر وقال لسوسن:

ـ لم تكن عاقراً أبداً هذه الأرض، ها هي حبلى بالزرع ونحن اذن رجال مخصبون. .

(ها هو يعود إلى تلميحاته الجنسية). . وسوسـن تبتسـم له دامعـة العينين وتضحك، تبكي وتضحك ثم تضع كفها في كفه. . هكذا؟! في زحمة الفرح؟!. . أظنها تحبه وسوف تنجح في جره إلى الزواج، علـه يرزق بطفل يمتطيه كالحمار فيكف عن التفلسف!!

حتى غرباوي العمدة سابقاً جاء لوداعنا ومعه ضابط النقطة الجديد. . وعندما أراد تقبيل حسن السبع كاد أن يبصق في وجهه، فهـل تاب عن البكاري؟؟!. . قال حسن ان آخر ضحاياه كانت بنت اسمها حسنية على ما أظن وهي التي كان زفافها يوم الخميس الماضي، ورأى الجميع دماء

عفتها ولكن حسن يشك في صحتها، ويقول بأن الضابط الجديد لا يسهر لا في دار العمدة السابق!!

الدموع تملأ عيني حسن، عجز عن أن يسامح زوجته فطلقها، وها هي الدموع في عينيه، أهي دموع الفراق لقريته أم لمطلقته وكان يحبها جداً؟!.. لن ينسى همومه إلا في مكان جديد وعمل جديد وهواء جديد، وهو يستحق كل خير..

بحر يوسف يقترب.. ونحن نسير بجوار المأخذ، منظر الماء لذيذ، والأولاد، البط يسبح مع الأولاد.. وسأشتري للولد العفريت حمادة ابني دراجة صغيرة كي يركبها ويعتقني أنا من الامتطاء ومن شي حا شي حا.

مجيد طوبيا

دوائــر عــدم الامكــان

روايــة

مجيــد طوبيــا

من مكانه البعيد في آخر الدنيا خرج القمر، ليس كالقمر في سائر البلاد، وليس كالقمر في باقي الأيام. .

من نـافذة داره نظر إليه الشيخ مفتاح، فلمعت لحيته الرمادية وبرقت عيناه دامعتين، أساه يزن قنطاراً. . اهتزت لحيته وقال:

ـ الليلة ليلتك يا عواد.

أذني سمعت اسمي، وعيني نظرت إلى السماء: الابتسامة الكريهة في القرص المحملق اللامع، يشوه سطح السماء ـ قمـر هذا أم وجـه بشع؟! ويلطخ أشياء الأرض بضوئه المزرق، ويكسر حـلاوة الليل. . ويسمونه بدراً!!

في النافذة لاحت زوجة الشيخ، استدار يحجب عنها رؤية القرص، القرص البشع، لكنها فهمت وشهقت، وبكى جميع جسـدها، ونـاح صوتها:

ـ هنومة!!

فـارتجف جسدي وتنبهت، وكنت مكتـوماً فـوق تـراب الحـارة، مستكيناً في ظل الحائط، أفكر، انتظر. . فلما رأت عيني رعشة اللحية وخشب الشباك وفم الشيخ يرتعش باسمي، وسمعت أذني قفلة المزلاج ونحيب المرأة تبكي باسم هنومة، أصابت الرجفة جلد رأسي، ونهضت متحفزاً، محملقاً في كل ما حولي: البيوت خفيضة متلاصقة متساندة ـ ليست هي بيوت النهار! ـ الشبابيك عيون، الأبواب أنوف. . والحمار الأجرب فوق كوم السماد نـائماً تصعـد بطنـه وتهبط، لكني لم أسمع تنفسه.

كنت أريـد أن أسأل الشيـخ سؤالاً، وقبل أن أنطـق رأيت خشب الشباك، فوقفت أنصت أترقب. . الهمهمات في آخر القريـة، الأولاد والصفائح والصيحات العبيطة. . وأنا أفهم كل شيء، تنفتـح أفواههم فتستدير وتصيح بالصوت الرديء، وتتجمع قبضاتهم فتتكور وتدق فوق الصفيح، وتسرع أقدامهم فوق التراب تبحث عني.

قلت فلأترك المكان، وسرت. . .

* * *

أز الباب منفتحاً عن دار أم السعد الداية، بانت الصفيحـة في يد ولدها السمين محروس، ثم ظهر وجهه المستدير، مسرعاً مشدوداً إلى صوت الأولاد رآني فتردد وخبأ الصفيحة خلف ظهره. دخلت عليه فتسمر مكانه خائفاً. . سألته عن أمه، تراجع حتى الحائط وصوته يتلعثم:

ـ زوجة سائق الجرار تلد، أمي تولدها.

تركت المكان فجرى، وابتعد لكني أفهم كل شيء بعد قليل سيحوم من حولي محتمياً بالأولاد، البدين ابن الداية.

امتد خيالي أمامي طويلاً باهتاً، فأدركت أن نور القرص، يأتي من ورائي وفي ظهري، تضايقت وغيرت اتجاهي وألقيت بظلي خلفي، فجاء البشع بنفسه في وجهي.. استدرت وجعلت ظلي عن يساري، لكن أصوات الملاعين اقتربت من أمامي، فكرهتها وألقيت بظلي إلى يميني.. وسرت أخترق القرية، ولم أناد.

لكني بعد ذلك رأيت العجلة الكبيرة نائمة فوق التراب، ونجار السواقي يدق فيها المسامير.. رآني فتوقف ونظر إلى القرص ثم إلي ثم إلى ظلي الباهت، وتصعب وعاد إلى ساقيته الجديدة يدق فيها المسامير، فسمعت الدقات وتركته، وطفت أنادي.

وسمعني كلب سليمان الأعمى فعوى، اقتربت منه فتراجع وزام ودار في كل صوب، وجرى يميناً وجرى يساراً، لكنه لم يخرج عن دائرة الحبل، مربوط بحبل طوله متران، وعواؤه ليس كعواء باقي الكلاب، وليس كعواء سائر الأيام.. لاح صاحبه الأعمى من طاقة الدار، أطل بأذنه إلى الخارج تنصت. تقلصت عضلات الكلب، مد بوزه إلى الأمام، مط كل جسده ناظراً إلى القرص العالي، ثم عاد يعوي عواء جريحاً مسحوباً، غضب منه الضرير فصاح ناهراً:

ـ اسكت يا ملعون. الأب ذئب والأم كلبة جرباء.

فانكمش الكلب في جذع الشجرة. . وأطل الضرير بأذنه اليمنى إلى الخارج ثم اليسرى، جاءته من بعيد دقات الصفيح، ففهم كل شيء ومصمصت شفتاه، وزام صوته الأجش باسمي:

ـ عواد!!

فنظر كلبه إلى القرص، وعاد يسحب عواءه الرفيع الممطوط المبحوح. . وتابعت أنا المسير حتى واجهتني بناية الوحدة المجمعة: بيضاء في الشمس لكنها الآن بلون القمر وجميع الأبواب موصدة. . لكن النادي أنواره مضاءة، وفي داخله: أصوات الرجال ونجمتا الضابط الصغير ودخان السجائر ووجه موظف الجمعية الباهت المستدير والسعلات والزبيبة السوداء في جبين الحاج حسين.

ومن عند شريط الحديد سمعت قطار العشاء. . ثم جاءتني أصوات العيال من اليمين فتوجهت يساراً وأنا أفهم كل شيء: منذ اختفت هنومة وغابت وكلما استدار القمر والأولاد يدقون على الصفيح ويلتفون من حولي صاخبين.

مجانين!!

* * *

رحت إلى دار سائق الجرار، أبحث عن الداية أريد أن أسألها

سؤالاً. . الباب موصد لكن الطاقة الصغيرة مواربة. . تشعبط ورفعت رأسي حتى تمكنت من رؤية الداخل: زوجة السائق على ظهرها تتلوى ببطنها العالي، والداية أم السعد على حافة الفراش، والطشت عند قدميها، وعدد من النسوة والبخار، والماء فوق النار يغلي. . تحسرت: هنومة يا حلوة المعشر يا ناعمة الملمس، ماذا لو حدث لك مثل هذا وانتفخت بطنك؟!

اقتربت أصوات الأولاد. أنصتت الداية، وتصعبت باقي النسوة. . وقالت الداية:

ـ كانت هنومة زينة في النساء، زينة في الجمال.

قالت جارتها:

ـ مال بختها بقدر حلاوتها، لا يكمل الحلو أبداً.

ارتعشت العجوز في الركن المعتم:

ـ ما حدث لها كان المقدر والمكتوب.

ارتجفت الحامل وتحسست بطنها، انتبهت أم السعد إليها، ونظرت جميع النسوة، وحدث السكوت. .

فهبطت إلى أرض الحارة، بالوهن في ساعدي، وصخب الصفائح في الهواء، وعواء الكلاب من كل صوب وكلب الأعمى. . ولم يكن بامكاني أن أفعل أكثر مما فعلت، قبل الزواج أخذتها إلى المرأة الحكيمة، عرتها ونقرت واستمعت وأخذت بولها وغابت ثم عادت: وأخذتني جانباً وقال:

ـ لا عيب في الرحم، لكن البويضات تأتي واهنة.. وقد تحبل البنية بعد عامين أو ثلاثة أو عشرة.

تحسست الحكيمة وهمست:

ـ أعرف امرأة ولدت بعد خمسة عشر عاماً من الزواج.

كشفت الحكيمة السر وباحت:

ـ تختلف أرحام النساء.

ثم أخذتني بعيداً:

ـ لكنك لم تكمل علاج البلهارسيا!!

وما حيلتي في ذلك؟! بعد أن ملأت الابر فخذي وشفيت أول مرة دخلني المرض ثانية في الماء الملوث، وعاد الحرقان القاسي إلى مجرى بولي وتضاعف العذاب، وصارت عيناي تغرورقان مع خروج القطرة الأولى، وقالت الحكيمة أن الأزمان يفقر الدم، وان فقر الدم يودي بالعقل.. لكن كل ذلك طال حتى تعودته.

صرخت زوجة السائق فذهب السكوت وعوت الكلاب القريبة وجاوبتها الكلاب البعيدة. عدت أتشعبط وأتلصص من طاقة الدار: وسعت الحامل ما بين فخذيها، تأوهت: أشعر بضربة مؤلمة في الظهر، تلوت وتقلصت: الألم الآن عند أسفل البطن.. ثم كتمت أناتها فصعد الدم إلى وجهها.

تحسست أم السعد البطن المنفوخ، رأيت ظهر كفها المجعد، كم من الأطفال سحبتهم هذه الكف من داخل البطون؟! منهم من عاش

وتزوج وأنجب وسحبت أطفاله، ومنهم من مات وارتاح وأسبلت بأصبعها عينيـه، ومنهم من لم يمت مثلي وتعذب، ولابـد أنني بكيت عنـدمـا سحبتني. . ومنذ أن وعيت وأنا أرى وجهها في هذه الحال، كله تجاعيد وخطوط متشابكة كأوتار الغربال، وشعرهـا مصبوغ بلون الحنـة، لكن منابته الآن بيضاء عند الجلد، وفمها يتحرك وينطق بسيرة هنومتي:

ـ لما جاءتني الشابة شاحبة باكية سـألتها إن كـانت تحس بوجـع في ثدييها فأنكرت، فعرفت أنها ليست حاملاً في الشهر الأول. حزنت وقلت في سري ربما حبلى في الثاني، وسألتهـا ان كانت تشعـر بوجـع في ظهرها، قالت: أوجاع التعب من شدة العمل. أخرجت ولدي محروس وأغلقت الباب وكشفت على ثدييها، قربت اللمبة وفحصت الأيمن ثم الأيسر: لونهما طبيعي لم يغمق!! قلت لها: هنومة يا غالية لست بحامل!!

عرفت الحامل رغم البرد. تأوهت وتصلب جسدها فتعرت ساقاها، ثنت ركبتها فبان فخذاها رجراجين في لون العجين الخمران. . غطتها أم السعد وعادت تقول:

ــ ناحت البنية وانكمشت باكية. فكرت وقلت لم يعد لها إلا حلب النجوم، ربنا يسهل لها. . فكرت وقلت الأمل في حلب النجوم ووصفة الاسلاف لا تخيب. . اصعدي يا غالية الى سطح دارك، ومعك يا غالية لبن حمارة حديثة الولادة ثم قومي بحلب النجوم. . شهقت البنية وقالت أنها لا تعرف فشرحت لها الأمر، وقلت لها أنذري للأوليـاء علّ باب السماء يكون مفتوحاً.

اهتزت العجوز في الركن المعتم:

ــ أصيلة يا أختي، لكن المكتوب لا راد له.

ــ أبداً يا حبيبتي..

تحركت الحامل فجأة، لو تلد الآن ـ الصمت ـ لو تلد الآن؟! أريد أن أرى طفلاً يخرج، بفمه وبساقيه وبقدميه وبرأسه وبكل الإنسان يخرج من الفتحة الصغيرة، ليبكي!!.. أنا خرجت لأكبر وأتألم عند التبول وتهجرني هنومة وأبكيها وأدور في كل القرية أناديها، وسأظل أناديها حتى تعود.

وحيداً عوى كلب الأعمى، عرفته الداية فترددت ثم قالت:

ــ لكني رأيتها تنظر إلى سليمان الأعمى، كانت تسير مع رجلها وكان الأعمى يبول تحت الشجرة فوقفت تحملق إليه طويلاً! حتى اغتاظ عواد وجذبها بعيداً.

كان الأعمى كالنخلة، وفوق كتفيه طفل من أطفاله، وتصنمت هنومة وهي تبحلق في عورته واحمر وجهها، ففارت دمائي وجذبتها فشهقت وكادت أن تنكفىء على وجهها، الغالية.. وحرك الأعمى أذنيه باحثاً عن معنى الصوت ومصدره، وأقسم أنه رآنا.. وخاصمتها فظلت تلاطفني وهي تعلم أنني سأرق وأرضى عنها.

لكن لماذا تحكي الداية هذه الحادثة؟!.. صرخت فيها:

ــ يا حرباء يا بنت الحرباء.

ذعرت النسوة! تراجعت الداية، رفعت الحامل رأسها نحوي لكنها عادت تئن ببطنها، تحاملت عجوز الركن المعتم وأغلقت الطاقة في وجهي . .

جاء الخشب في عيني قاتماً واسع الشروخ، فهبطت إلى تراب الحارة، متوعداً الداية:

ـ سأرجع لأحاسبك يا بنت الحرباء، سأرجع.

وسمعت صوت العجوز يرتعش:

ـ حاذري منه يا ابنتي بعد الولادة، حاذري منه . . مجنون وقد يخطف وليدك أو يخنقه!

فلم أبال وقلت أنها عجوز مخرفة، وسرت . .

* * *

غـول مـدسـوس في بـاطن الأرض، مفتـوح الفم إلى أعلى إلى السماء. . نصف العجلة في الهواء والنصف الآخر في الجوف، وكل شيء في صمت غريب!

اقتربت من الساقية في حذر، حملقت: ضوء القمر يتسلل إلى باطن الأرض إلى أعلى جدار البئر، والظلال فوقه ساكنة لا ترتعش!

اعتـدلت حذراً، أرقب مـا حولي: الـزرع والحشـائش والحصى المتناثر والهواء وكل شيء في جمود مريب وصمت عجيب، عدا ديك عبيط صاح في غير موعده. . والنخلة العجوز بجذعها وسعفها في سكون تام كأصنام الكفار.

اقتربت ثانية من الساقية، انثنيت ونظرت إلى البئر، عمودها غائص في الجوف. . أنصت، كل شيء ينصت، ارتعشت شفتاي مناجياً:

ــ هنومـــه. .

الجـوف، صـدى الجـوف. . حملقت أسفلي، رأيت ظلي على

الجدار وأشباح أخرى غريبة!.. عفاريت صغيرة تجري وتختفي، وسمعت أنفاساً خافتة تقترب وتبتعد، وهمهمات عجيبة مكتومة!.. جزعت وناديت:

ـ هنومة الدنيا برد أخرجي..

سمعت أذني الصدى يردد جزعاً: «هنومة الدنيا برد أخرجي».. اصطكت أسناني: «أخرجي رجي جي»...

تلاشى الصوت في الجوف.. وليلتها جريت خلفها، وفي هذا المكان لمست جسدها والشال الأحمر لكني انكفأت، وبعد أن نهضت لم أجدها، وبحثت فلم أعثر لها على أثر، فهل أخذوها إلى الأرض؟ هذا الغول أيضاً طمع فيها.

ازداد هلعي. تلفت حولي ثم ملت في البئر وسألت:
ـ تحبين أن أنزل أنا؟
«تحبين أن أنزل أنا؟».. همس الصدى: «أنزل أنا».. قربت أذني: «أنا.. أنا.. أنا..»

تضاعف هلعي: لماذا لا تجيب؟.. نهضت وبدأت أخلع:
ـ أنا نازل لك.

خلعت الجلباب: «نازل لك».. سقط الجلباب: «لك.. لك.. لك..». أمسكت بطرف الفانلة، لكني سمعت الأصوات، الأولاد والبنات!.. توقفت يداي، همهماتهم قريبة فأين هم؟!.. تراجعت

خطوة فانشقت الأصوات من حولي فجأة، وأحاطتني الصفائح من كل صوب!

لكن ليلتها كان مخنوقاً ولهذا دق الصفيح في حـواري القريـة. . الليلة أيضاً يبدو قرصاً مستديراً لكنه ليس مخنوقاً، فلماذا الصياح ولماذا الصفيح؟

نـظرت إلى السماء فبـاغتني القرص يبتسم شامتاً، عـدوى البشع المستدير الوجه يكيدني، دائماً يضحك ويقهقه ويغيظن من فوق ـ ومن حولي ضربات الصفائح لا تكف، تعلو متشابكة عنيفة وحادة ـ وليلتها أيضاً ظهرت الهالة وتآكلت كل حوافه.

درت باحثاً عن طوبة. . فسكنت الصفائح وجميـع الضفادع، إلا أنني أسمع أنفاس الأولاد، فأين هم؟!

قلت أبحث عنهم لأهشهـم، فبوغت بظلال الأشياء الباهتة تتبدل، وتنتشر متسعة فوق الأرض!!. . فكرت وسألت نفسي: ما الـذي غير ظلال الأشياء وجعلها تتسع عشرات المرات؟!. . رفعت رأسي فرأيته يقتـرب!. . زاد عجبي: القرص يهبط! يـدنو من الأرض، بـابتسامتـه الصفراء، بنظراته الشامتة الهازئة مني!. . والشهقات المبهمة تحيطني!

تحفزت وأنا أفهم كـل شيء: يتحداني القـرص ويطلب نـزالي، وسأنازله. . تراجعت، فهبط من حالق. دخلت ضحكته أذني، غليظة مغيظة. تقلصت أمعائي، وشعرت في قلبي بوخزة عنيفة، وكان ينقض

فبحثت عن طوبة وصرخت فيه:

ــ يا ابن الكلب، يا ابن الكلب. .

التقطت بعض الطوب، سمعت خطوات صغيرة تبتعد فجمدت في مكاني!! ما معنى هـذا؟!. . . لكن الضوء ازداد نصـوعاً ففهمت أن القرص يقترب ولم أهابه وبعزم ما أملك صوبت طوبة إلى عينيه وألقيتها، فعلت وتعالت معها الشهقات المبهمة الحـائمة من حـولي، والأنفاس الصغيرة المهرولة عن قربي!. . وانتظرت أن يصرخ فلم يصرخ، القرص اللعين. قلت طاشت الطوبة، وتحديته:

ــ تعال هنا يا جبان، لو رجل. . انزل إلى الأرض لو رجل. .

قهقه وحملق وبرقت فضته، فألقيت نحوه بالطوبة الثانية ثم الثالثة، وأنا أسمع ضحكات العيال ترتبك تتداخل تهمهم في غموض، واحتار عقلي: من أين تأتي؟!. . والصفيح يدق فجأة في شدة، في عنف. . وأنا ألقي بطوبة رابعة وخامسة. . ولم يصرخ القرص. . وأخذ يراوغني شمـالاً ويمينـاً وفـوق وتحت. التقـطت وألقيت، التقـطت وألقيت. . ارتعدت دقات الصفيح، اقتربت وابتعدت ثم انحسرت من كل النواحي وتجمعت في ركن واحد. هذا الذي خلفي.

تعبت ولكني واصلت الرمي والقذف. عرقت، سال عـرقي حول شفتي. لهثت. انخفض ارتفاع الطوب، قصر مداه. بلل العرق شفتي فذقت طعمه. . لكني داومت. . وفجأة سمعت خلفي صرخة طويلة، وانسحب القرص إلى أعلى، متقهقراً إلى سمائه. .

سعدت لذلك وضحكت، فسمعت أذني ضحكتي متحشرجة لكنها فرحة، أصبته ولا بد. . فتراجع وضاقت ظلال الأشياء وصغرت وعادت كما كانت وانخفض الصراخ متباعداً، ولهثت شامتاً:

ــ ابك يا ابن الكلب. ابك يا ابن الكلب. .

ثم راحت نهنهات البكاء وتناءت الخطوات الصغيرة. . واختفت جميع الأصوات، ليعود كل شيء إلى صمته المخيف.

* * *

عند ذاك تهالكت منتصراً، متقرفصاً رأسي بين ركبتي. . السكون في الأعشاب والسعف، الصمت في الهواء، والتعب في جسمي ورأسي. . وقلت أغفو قليلاً، أنعم بالحلكة في حجري ـ صاح الديك العبيط فابتسمت ـ ثم سكنت تماماً في برد الليل. . ثم تنسمت نسمة خفيفة وبدأت أرى وجه هنومة، شاحباً لكني فرحت به: يا حلوة يا لطيفة المعشر أنا قاعد وحيد ـ كانت ليلتها ساهمة ـ قاعد من الغلب والبين حال أسير سالت دموعه، فصرت شبيه مركب بهلبين فوق الشعاب طاحت قلوعه. .

وكانت ليلتها ساهمة، ثم قامت في خفة، وقالت:

ــ أريد أن أصعد إلى السطح. .

* * *

مثل رخ يحط فوق طائر صغير، فرد سواد تلك الليلة جناحيه فوق النهار، حية سوداء تبتلع حمامة بيضاء. . وصارت أشياء الليل غير أشياء النهار. . وكانت حبيبتي ساهمة ثم قامت في خفة وابتسامة باهتة ترف قـرب شفتيها، واصفـرار ليس منها كسـا وجهها، إلا الخـدين فكـانـا أحمرين. . والشعر على كتفيها ضفائر تذهل، ثم قامت في خفة، كطيف خيال وغرد صوتها:

ــ أريد أن أصعد إلى السطح.

احترت أنا. . ولما قالت:

ــ أريد أن أحمل ولد.

زادت حيرتي، لكني أخذتها في حضني. . فضممت اللين بين يدي والرقة. . وفي خفة جذبتها إلى الحصيرة. قالت:

ــ تتعبني الحصيرة، تخطط جسدي وترسمه بخطوط بيضاء تنمل ظهري، وخطوط حمراء تؤلمه. .

فرشت شالي الأبيض فوق جلبابي الأزرق فوق كل قماش الدار، صار المرقد طرياً على غصن البان. . قلت: لو بيدي لجئتك بسرير مذهب السيقان ، لعطرتك بالمسك والريحان. . لو أقدر لأنمتك فوق قنطار من ريش النعام، يا أحلى من نام وأحلى من قام. . لكن العين بصيرة واليد قصيرة، فلاح صغير رمتني الأرض بمحصول فقير. .

بنظر كسير نظرت للفراش، مهتزة الجسد ملتاعة:

ــ نمنا فوقه سنوات، ولم أحمل ولم ألد. . . مناي أن أحمل بولد، مناي أن ألد. .

ــ مكتوب يا حبيبتي ، كله مكتوب. .

ــ في سنتنا الأولى قلت أنا سأحمل في الثانية وفي الثانية قلت أنت في الثالثة. .

ــ مقدر كله مقدر. .

ــ وفي الثالثة قال الناس يأتي الفرج في الرابعة فمرت وخجلت الحكيمة، وجاءت الخامسة فسكت الرجال وشمتت كل الصبايا.

ــ لم يشمتن.

ــ وقلن دميمة تلد خير من حلوة لا تلد.

ــ لم يقلن. .

ــ وتعذبت عيناك وقالت: يا خسارة لا يكمل الجلو، لو يكمل!

ــ تظلمينني ، ما نطقت عيني بغير الوجد، نصيب يا حظي نصيب. .

ـ نصيب الغبن. . بطون كل الصبايا حملت، أرحام كل النساء امتلأت، إلا بطني، إلا رحمي.

وأصابعها ترتجف وتضغط على بطنها. . آلمتني وهمست أواسيها:

ـ مكتوب يا بهية الطلعة، مكتوب.

ـ يغور المكتوب. . مناي أن ينقطع حيضي، أن يقولوا هنومة حامل في الثالث في السادس في السابع، يكون لي نسل. . بدل يا هنومة يقولون يا أم الغلام. . لكن بختي دون النساء قليل والرحم عليل.

ـ مقدر.

ـ وهل المقدر ينحدف على صهد ونار؟!

عضت شفتها السفلى، ثم اندفعت إلى طاقة الدار، وساحت عيناها إلى بلاد لا يعلم أحد مداها:

ـ مرامي في وليد، جنين يتحرك في رحمي، أحس برفسة قدميه هنا. . لا. . هنا. . أي! على مهلك يا ضنايا، يا روحي، يا مسمسم. . وتذهب أنت لتستدعي الداية في عز الليل أو في وش الفجر وتدخل الداية داري لتولدني: حاسبي يا أم السعد بالراحة على الغالي يا أم السعد. . تعال يا حبيبي تعال، الله على جمالك. . هشك هشك هشك.

شفايفها مشمش واحات، أرغب في وصال الجميل، والله، مستحي أقول. .

ارتاح خدها على كفها. . ومن كل الغيطان جاء نقيق الضفادع

الغليظ.. ومن كل أركان الحواري ماءت القطط تنادي: داوود داوود... ولما أخذت قطتي شهيقاً عميقاً زقزق الخيار تامياً في ضوء القمر، ثم ضمت شفتيها ـ وهواء الليل ينعش ـ وتلفتت الحلوة باحثة، دائرة بنظراتها إلى السماء.. بانت الحيرة على وجهها، وكلب الأعمى لا يكف عن النباح، وفضة البدر فوق الزرع والأرض، وعيناها الواسعتان تتسعان:

ــ أريد أن أراه..

زاحمتها الطاقة.. زجرتني وكنت سأضحك قالت:

ــ في الصباح ذهبت إلى أم السعد.

ــ أم السعد الداية؟

ــ سألتها عن حل يريحني..

ــ منعتك من الذهاب إليها.

ــ قالت عديمة الخلفة دواؤها حلب النجوم.

ــ لا نجوم ولا نيازك.

ــ قالت وصفة الاسلاف لا تخيب..

ــ منعتك..

ــ قالت اصعدي إلى سطح دارك وابحثي عن نجمك واحلبيه.

ــ السماء مبدورة بملايين النجوم.

ــ سأحلب البدر نفسه.

أدرتها حانقاً، لكني بسرعة هدأت وصرت هيماناً، كانت في ضوء

الليل أحلى من نساء كل البرية: يمسيك بالخير يا مشمش طري مبلول، وحياة من زين الرقبة وشرعها، أنا خاطري في وصالك، خاطري ومستحي أقول.

قلقت عيناها:

ـ أريد الصعود إلى السطح.

أريد أن أحط أبطي في أبط الجميل وأنام، لباكر، لبعده.. أدعو على الشمس أن لا تطلع إلا بعد ستة أيام.

ثم جذبتها حنوا إلى صدري، فدفعتني برقة شاحبة الوجه زائغة العينين غير رائقة المزاج... لو تبتسم؟!

ورغبت أن أسري عنها، قلت مناوشاً:

ـ تريدين الصعود إلى السطح؟

ـ أريد.

نغمت كلامي ملاعباً:

ـ لكن السطح طلوعه بالسلم، والسلم عند النجار، والنجار عاوز مسمار..

لم تضحك عازفة عن اللهو ولم تسأل أين المسمار!!.. وزقزق الخيار نامياً في الغيطان.. وزمت شفتيها ولم تلعب، محمرة الوجنتين لكنها لم تبتسم!! لو تبتسم!! لو تسأل أين المسمار؟!

ــ والمسمار عند الحداد، والحداد عاوز بيضة والبيضة في بطن الفرخة.

للفور تأوهت، ضغطت على بطنها وتألمت.. ثم ساحت عيناها في بحر أساها، وأنَّ صوتها:

ــ البيضة في بطن الفرخة!!

فهاجت ذكور الضفادع، تنق عند المصارف.. وشهقت بهية الطلعة فملأ الهواء صدرها: صدرك يا عجبان طارح رمان، صدرك يا عايق رمان طايب.. زفرت فخرج الهواء مشتعلاً لوعة: والله خائف منك يا زمن، خائف..

ثم ناحت موشوشة:

ــ والبيضة في بطن الفرخة!!

توددت إليها:

ــ أضحكي يا رفيقة، اضحكي..

ولم تضحك.. وابتأست أنا، لكني قلت:

ــ والفرخة عاوزة القمحة، والقمحة عند الطحان والطحان عاوز رمان.. وصدرك يا عجبان طارح رمان..

ابتسامة في جانب الفم، لكنها لم تضحك، لكني كدت ألمس صدرها، فدهشت دهشة قصيرة، وشهقت مستديرة في دلال، ثم رفرفت ضحكتها، أخيراً، فرفرت ضحكتي وغنت الدنيا وزغردت الطيور

ورقصت الزهور . . وقالت تندمج :

ــ والرمان عاوز بستان ، والبستان عاوز جرار . .

ــ والجرار عاوز مسمار ، والمسمار عند الحداد .

ــ والحداد عاوز بيضة ، والبيضة . .

ولم تكمل ، وانكسر جناحا ضحكتها ، وتمايلت ملتاعة إلى الشمال ، وإلى اليمين ، عود ريَّان تهزه لفحات صيف :

ــ كبهيمة الساقية هذه اللعبة ، تدور حول نفسها ولا تتقدم ! !

ثم مشت ناحية الباب تتمخطر ، حورية من بنات الحور :

ــ بدي أشوف القمر .

سددت الباب أمامها :

ــ شايف في جبينك هلال شعبان . . يا صغيرة يا كاملة المعنى أريد الوصال ، أريد . .

أنت المسكينة ، والخيار يطول ويزقزق :

ــ كئيب الوصال بدون خلفة أطفال .

والضفدع ينق ، ينق ينق ، وقطعت المسكينة نواحها ، محملقة ملوحة بأصبعها :

ــ لم أغشك ، لم أكذب عليك . .

ــ عطشان يا حبيبة ، عطشان اسقيني .

ــ قلت لك قبل الزواج أنني لست ولوداً .

ــ ولم أصدق. .

ــ وقلت لك أن رجلي الأول طلقني من أجل هذا. .

ــ ولم أصدق، ولا أصدق أن كل هذا الجمال لا يخلف. .

ــ ولكنه لا يخلف. . ولكني كصنم المرمر، جميل لكنه لا يعقب. . ليتك تركتني أكمل عمري عزبة وحيدة دون زواج دون أمل في خلفة الأطفال.

ــ أحببتك هكذا، وعشقت وصالك لأجل خاطر وصالك. .

ــ كيف الوصال ورحمي عاص على خلفة الأبناء، قفل بابه وقال يا انجاب بيني وبينك حاجز منصوب!!

ــ وصالك عندي كل الحياة.

ــ جف اللبن فصار الشوك في النهدين. .

ــ نعيمي في لمسة يديك، بسمة شفتيك ونظرة عينيك. .

ــ انشرخت الحلمتان من قلة شفايف وليد تمص. . ري البستان يطرح الورد والقمح والريحان، لكن الرحم صخر وقفر، لا ماء ولا ظل. .

وانهارت فوق الحصيرة، وعاد جزعها يتمايل ويئن ذات اليمين وذات الشمال. . فجلست صامتاً منكس الرأس، حزيناً كحالي الآن، ورخ الليل في الخارج.

قبل أن تضيع كانت همومي انقطاع الخلفة وقلة الزرع وحرقة البلهارسيا عندالتبول،اختفت هنومة فضعت أنا وصار الليل حزناً والنهار بحثاً.

صار الليل حزناً والنهار بحثاً . .

وتمايل عودها المياس أمامي نادباً بصمت بختها، عصرني الألم وشعرت بالمرارة في فمي . . وأخذت أتأمل لونها الخمري وصدرها الناهد بثديين مشدودين، فزاد عجبي . . يزيد جمالها على جمال كل النساء فكيف لا تنجب؟! كيف لا تلد شبيهاً لها؟؟

وصباحها أمسكت بحفنة من طين حقلي الأسود وأنا في شدة العجب والفزع: كيف لم يعط القطن الوفير؟! . . تقطع كبدي وأنا أرى الشجيرات هزيلة مريضة وقد جاءت لوزاتها قليلة لا تطرح محصولاً . . وقال لي القطن الشحيح المندي أن الموظف أعطاني سماداً مغشوشاً، أخذ بصمتي وأعطاني سماداً مغشوشاً . فأهتجت وسرت إليه وواجهته: كشرت عيناه من بين وجهه المستدير الباهت وأنكر وقال:

ـ غير صحيح وكاذب . . وأنت فلاح ومهمل ولجهلك بالزراعة جاء قطنك هزيلاً .

وغاظني وجهه المستدير المصفر الباهت، وإنبثقت دماء القهر من أنفي وخرجت من عنده مقهوراً ـ أخذ بصمتي ـ ورحت إلى حقلي

وتأملت طينه: كيف لم يطرح القطن الوفير رغم الجهد ورغم الري بالماء العذ ب؟!.. فتقطع قلبي وصار كل جسدي عذاباً، ثم زاد كل هذا وأنا أرى عود الحبيبة يضج فوق الحصيرة، يتمايل ويئن يميناً ويساراً، فهل تندب الحقل أم تندب إنقطاع الخلفة؟!.. لو بيدي بساط السحر أركب الريح وأسابق الطير إلى بلاد ما رآها الغير، لأحضر للمحبوب كل المراد من سابع أرض ومن سابع سماء.

فجأة عوي كلب الأعمى عواءة وحيدة قصيرة، فسكنت هنومة منصتة وإتسعت عيناها: صوت الخيار يزقزق نامياً ليكبر ويكبر. فهبت ناهضة وأخذت تسير من حائط إلى حائط دجاجة حان وضع بيضها، فدارت تكاكي تكاكي:

ـ قالت أم السعد إحلبي النجوم، أنوي حلب القمر، القمر نفسه.

ثم سارت صوب الباب، وأسرعت بسد السكة، فنظرت بضراوة: «أنوي حلب القمر، القمر نفسه».. دعتني فى عصبية: «حلب القمر، القمر نفسه».. فتحت الباب: «القمر، القمر نفسه».. الباب: «القمر نفسه».. خرجت، أمام الدار وقفت، شهقت، وكان الملعون بدراً، وهتفت أنا أن تعود، لكنه كان في السماء ويضحك، الماجن ابن الكلب ـ أخذ بصمتي ـ وما زال يستدير.. وبعد ذلك بيومين دارت بهية الساقية ودارت العجلة، وخرج الماء من الجوف وخرج الشال الأحمر، وتساقطت القطرات.. فهل إختفت هنومة داخل البئر!!

* * *

رفعت رأسي من حجري: هل إختفت هنومة داخل البئر؟!.. ملت

فوق الجوف ـ الظلام ـ ناديت:

ـــ هنومة أخرجي، الدنيا برد.

إنشرخت نبحة الكلب، تقطعت منحبسة ثم تحشرجت ممطوطة.. نظرت إلى السماء فرأيت القرص ينظر، ابن الكلب!.. نهضت: «أخرجي الدنيا برد».. يا ليتني أطوله لأفقأ عينيه الأثنتين: «الدنيا برد».. دققت الأرض بقدمي أريد طحن فضته ثم عدت إلى الجوف: العجلة ساكنة، لكنني سمعت الأعشاب من حولي تهتز، الأوراق تخشخش: «برد، برد، د د..».. ثم جاءتني الرغبة في التبول، فكرت قليلاً ثم أجلتها، وقلت أعود إلى الدار لعلها هناك.

سرت خطوات فسمعت وقع الأقدام، وقفت أنصت فلم أسمع وقع الأقدام فقلت هذه خطواتي ثم سرت.. لكني سمعت الهواء يتخلل ما بين الزرع والعشب وشيشاً في السعف وحفيفاً في الأوراق، وأصواتاً غير مألوفة ليست كأصوات كل الليالي: تجمعت وتكاثفت ثم تفرقت وتباعدت، فصارت كالضحكات، وتموجت في أذني، فسمعت كل الأشياء تضحك.. تعجبت: لماذا تضحك كل الأشياء؟!..

حبست أنفاسي مفكراً: بل هي ضحكات هنومة تتخلل كل الأشياء..

ولم أصدق ونظرت فرأيت الأوراق تتلامس وسعف النخيل يتشابك والأعشاب تتمايل.. وأصواتها تتناغم في أذني، متصلة متقطعة، لأسمع الضحكات وليصبح كل شيء من حولي جميلاً.. فملأت صدري بهواء الليل: هل ستأتي الآن؟.. وجري الدم إلى رأسي، وشعرت بالدفء في

أذني. . ثم هب الهواء بارداً فجأة وأغرورقت عيناي، وسمعت عجلة الساقية من ورائي في أزة صغيرة، وإبتعدت باصماً خطواتي فوق التراب.

فلما هب الهواء البارد ثانية زاد إبتلال العين، لكن ضحكات الهواء أنعشتني وأفهمتني كل شيء: تسبق الضحكات هنومة تبشر بقرب قدومها، فهي قادمة وهذه علامة.

فلما سكتت جميع الضفادع فجأة، وصمتت جميع الكلاب، لم أندهش وقلت هذه علامة ثانية، فالأشياء تصمت كي تنصت إلى همس الخطوات الآتية. . . . وإنتظرت العلامة الثالثة، أن يصير الظل ظلين، فراقبت ظلي الباهت المطروح أرضاً، ورأيته يتكسر عند المنحنيات، وحيداً هابطاً في الحفر صاعداً فوق الأكوام. . وقلت سوف يحدث ويصير الظل ظلين. . وحدث أن رأيتهما أمامي: ظلين باهتين. . ظلان باهتان؟! . . الأول يقلد حركاتي فهو لابد ظلي والآخر ظل إمرأة، فمن تكون غيرها حبيبة الروح؟! إشتاقت إلي فعادت. . لكن هل يكون الظل وهماً؟! متباطئاً وفي خوف تلفت. . راح خوفي ونبض قلبي بفرحة لم أعرفها من قبل، وصعدت دمائي حتى فروة رأسي: يا حلوة يا كاملة المعنى طال غيابك فأين كنت؟

العينان والأجفان والبسمة والخدان الغمازان وصوت الحبيبة:
ـ زوجي يا عواد، هل تذكر هذه النخلات؟

النخلات الشاهقات إلى السماء والراسخات في وادي الكلأ، شرق أصنام الفراعنة. . الرطوبة تحتها صيفاً والرامخ المتساقط، وكباش الغجر ترعى بقرونها الملتوية. . أسفلها وقفت أرقب جني القطن في الغيط

الكبير: الأولاد والبنات والنساء، وهنومة وجسدها ينحني لتقطف القطن ثم تضعه في عبها، حورية آسرة في بياض ممتد، تتمايل مهتزة كعود القصب في الريح الخفيف وهي سائرة صوب الميزان والقباني يستوقفها طويلاً، لم أسمعهما، يمتع أنظاره من حسنها، وكانت تضحك وتشهق وتضاحكه. . ولما جاء رئيس الأنفار سكتاً ثم إستدارت له، لم أسمعهما، لكنها أيضاً ضاحكته. . وعادت إلى الحقل بوجه كالدم، وأنا واقف بوجه في لون الدقيق. . . تلكأت هي وإبتسمت لي فعادت الدماء إلى وجهي وأصابني الدوار لمدة ثانية أو ساعة أو يوم، كانت نشوتها تساوي ألف يوم، ولم أفق إلا على رئيس الأنظار يصرخ: «رح لحالك يا عواد» . . فمضيت وكباش الغجر الشبعانة تتناطح من حولي.

العينان والبسمة والخدان الغمازان، وصوت الحبيبة:

ــ قال أبي عنك: عواد هذا دائم الحزن دائم الصمت. . فقالت له أمي: ساهي وتحت السواهي دواهي. . وقلت أنا: يراني فيخفض نظراته عني هذا والله لخمة.

ــ كيف لا أكون وأنت فريدة لم أر لك مثيلاً. . طفت الدنيا غريباً، عبرت بحر يوسف شرقاً فعرفت نساء البنادر، ودخلت الصحراء غرباً فذقت نسوة الغجر، ولم أجد من تقاربك الحسن والسحر! . . أنت لست من نساء الأرض فكيف لا أكون أمامك لخمة! . . لكني قبل العيد رأيتك تسيرين وفوق رأسك مقطف القمح، وقلت في بالي: هذه فرصة. . وسبقتك وإنتظرتك في الطاحونة بين النساء ومقاطف القمح والذرة.

وكان القمح ينهر ليطحن والذرة تغوص لتطحن، فلما قدمت إرتبكت، ولما سمعتها تقول: «يدك معي ساعدني في إنزال المقطف»

زادت لخمتي وضايقني صوت الماكينة . . لكنها كررت ثانية : «يدك معي يا سي عواد» . . يا عيون عواد، لوأمرتني بإحضار سبع البراري لبحثت عنه في الفلا وأحضرته من ذيله حياً . .

العينان والبسمة والخدان الغمازان، وصوت الحبيبة :

ــ وأنزلت معي المقطف: وقفت قبالتي، وهبطت عيناك مع المقطف حتى طرف جلبابي. عبرت وجهي دون أن تنظر إليه . . عدلت أنا الطرحة ثم رأيتك تسير مبتعداً فناديتك: «قربه لي من القادوس يا سي عواد» .

ففهمت كل شيء وقلت إنها راغبة، وعدت مركزاً عيني في عينيها . . إحتملت نظراتي لحظة ثم لم تقدر وإحمر وجهها، ولمست أصابعها أصابعي فأنتشيت وكفت عيناي عن رؤية كل الأشياء حولي، وغامت الماكينة والقادوس والعجلة الكبيرة بسيرها العريض والمقاطف، ونسيت الدقيق الهابط من الفتحة مطحوناً برائحته والكفوف تضغطه في المقاطف . . وكفَّت أذناي عن سماع جميع النسوة وصوت الماكينة :

ــ ولم أعد أرى أو أسمع إلا صورتك وصوتك أيتها العزيزة، وصرت هيماناً وتاه عقلي ولو لم أمسك نفسي لأفلتت يداي وسقط مقطفك .

ــ كانت تصبح فضيحة، كنت سأعود إلى الدار لغسل القمح ثانية، وهذا يأخذ يوماً، وكانت أمي تريد عمل الفطير والفايش من أجل العيد .

ــ كل سنة وأنت طيبة .

ــ وأنت بالصحة والسلامة يا عواد .

ــ وبعد ذلك ظللت قرب الطاحونة منتظراً، فوق براميل الجاز جالساً، أرقب نبش البط والدجاج بحثاً عن الحب الساقط ، والعصافير

قد هبطت تلقط رزقها . . حتى رأيتك تخرجين بمقطف الدقيق فوق رأسك: غزال ماشي . . ثم رفرفت حمامة من حولك وحطت.

ومن شباك قسم البوليس كاد الضابط الصغير أن يأكلها بعينيه، ومن شباك الجمعية حملق الموظف من وجهه المستدير الأصفر، ابن الكلب أخذ بصمتي.

ـ ثم رفرفت حمامة بيضاء من حولك وحطت فوق الدقيق.

ـ صحيح؟

ـ حمامة بيضاء.

ـ ولم تهشها؟

ـ ألم تشعري بها؟

ـ لم أكن أشعر بالمقطف . . وقت أن جاءت عيناك في عيني أصابتني الدوخة، لو ملت أمام النسوة تقبلني لما قاومتك، لو رغبت أخذي فوق الحبوب لفككت لك أزرار ثوبي.

ـ كانوا أخذوني اللومان.

ـ كنت سأشهد بأن الذنب ذنبي.

ـ كانوا ضربوني بالنبابيت.

ـ كنت خبأتك داخل عيني وأغمضت عليك.

ـ يا ظلي الذي أرتاح تحته من حرقة النهار، يا شهدي الذي يكسر لي مرارة الحياة، يضنيني فراقك فلا تتركيني.

لكنها راحت تتواثب، في خفة الريشة، وجريت من خلفها، والهواء يطاير طرحتها وهي تتمايل مع الزرع وتأخذ لونه ثم تعود لتظهر، وتجري

في العشب فتأخذ لونه. . وكدت ألمسها لكني إنكفأت فناديت ولم تسمع فظللت أنادي إلى أن رقت، ورأيتها تعود وفي عينيها الحنان، وتابعنا.

* * *

وفي ضوء القرص رأينا الضفادع تتقافز ـ وقالت هنومة أنها ترقص له ـ وكلباً يتسلل بين الأعواد من خلف ثعلبه، وكنا في سعادة إلى أن لاحت بناية الوحدة المجمعة، مطفأة جميعها عدا النادي. . . . . وبدأنا نسمع أصوات الراديو وثرثرات الرجال وطرقعات القواشيط وأشارت هنومة إلى النور الساقط من الداخل على الخارج وقالت:

ـ نجلس هناك.

ـ ولماذا هناك؟!

ـ هناك في ضوء النادي.

المرارة في فمي والرعشة في عيني. . كل الرجال هناك غازلوها، وجربوا أن يغووها، كلهم طمعوا فيها كغول الأرض المدسوس في جوف الساقية، أولاد الكلب، الوجه المستدير القبيح الكالح فوق بدن موظف الجمعية بعينيه المحملقتين، والزبيبة السوداء المفرطحة في جبين الحاج حسين. . والنجوم البراقة للضابط الصغير، جاء بوجه أصفر فأمتلأ لحماً وقلة حياء، وفي شهره الثاني أرسل الخياطة ـ قوادة الأكابر البدينة ـ سدت باب الدار بالشؤم والشر وقالت:

ـ الضابط الجديد يسلم عليك.

تعجبت وترقبت، أحمر وجه هنومة!

ـ أرسلني لك برسالة.

وعرفت الرسالة،يريد ان تخدمه هنومة وسيدفع كثيراً، وفهمت ورفضت، وإغتظت فانقشعت المرأة من عند الباب، إنبثقت دماء القهر من أنفي.

لكن أحداً منهم لم يعرف جمالها الاخر، وحاولوا اللعب عليها، وهم أناس ليسوا كباقي الناس، عذبوني بقول الفم وهزوء العين: هنومة جسد فوار يذيب عشرة رجال، لا يشبعها رجل في فحولة الطلوقة فكيف يملأ عواد ليلة من لياليها الطويلة؟!.... وقالوا: هنومة جمال زائد لم يخلق من أجل رجل واحد!.. ولذلك طمعوا فيها، ولذلك لم أملأ أنا أعينهم في أي نهار!.. لكن أحداً منهم لم يعرف جمالها الآخر: الطيبة، الوداعة، وحسن المعشر.

المرارة في فمي والرعشة في عيني، سألت هنومة ثانية:

ــ لماذا تحت الشباك؟

تبرمت.. خفت أن تروح، توددت في صوت خافت:

ــ نجلس في أي مكان آخر.

أصرت.. وتبعتها وسقط نور النادي فوقي فأقشعر كل بدني.. لكنها جلست فجلست.

* * *

وأشارت لي أن أسكت، أن ننصت. . أصوات الرجال تخرج من داخل الغرفة. . سمعت أذني صوت الضابط الصغير. . كفت أسرته عن شراء سمن القاهرة، أعجبهم سمننا خصوصاً سمن المرة الأخيرة. . قال صوت الحاج حسين: سمناً هنياً والتالي سيكون ألذ بإذن الله. . ثم آذت أذني ضحكة سخيفة فصوت موظف الجمعية، مستدير الوجه يقول:

ــ إن كان سمن الريف ألذ من سمن المدينة، فنساء البندر ألذ من نساء الريف. .

تنمرت هنومة وبان الترقب في وجهها، وكانت تعرق! وقال صوت الضابط:

ــ ولا هذه، جمال البندرية نصفه صنعة، أما الفلاحة الصبية فجمالها طازج الحسن.

الضحكة السخيفة وضحكات أخرى:

ــ فهل ذقته يا حضرة الضابط؟

بسمة عجيبة غريبة في وجه هنومة! وحياء وسعادة! . وكانت تعرق. . ورأيت الزهو في عينيها فركبتني الغيرة، لماذا تزهو من رأى

الضابط؟!.. وإغتظت منها، فالتصقت بي ولكني لم أشعر بدفء جسدها!.. ونسيت أصوات الرجال وأنا أفكر فيها وهي لصقي ولا أشعر بدفئها، من أجلها أحببت كل الناس، وبسببها توددت إلى أبيها الشيخ مفتاح كي يرضى بزواجها، ووافق وبارك، لكن أمها الطماعة قالت: «لا، لن أعطيها إلا لأغنى الرجال، زينة إبنتي، جمال ودلال».. فزجرها الشيخ: «قلبي مرتاح، بعيبها يأخذها عواد».. فقالت الطماعة: «ساهي، وستأتي من تحت رأسه الدواهي». لكن ربط الكلام كان في يد الشيخ، ويوم أن صارت لي بهية الطلعة أحسست من الفرحة كأنني قادر على الطيران، كريشة في الهواء، كشعوري الآن.

البسمة العجيبة والكحل الرباني.... وقلت للحبيبة:

ـ سعيد برجوعك، فرحان أريد أن أطير من حولك كيمامة، كالحمامة التي حطت وإرتاحت فوق مقطفك.

نهضت وسألتها مرحاً:

ـ هل أطير؟ هل أطير؟

لكني تنبهت فجأة إلى الأشباح فوق التراب، ظلال تتحرك في نور النادي. ففهمت كل شيء وإلتفت، ورأيت الرجال يقفون في النافذة، ناظرين لي وللوليفة.. إغتظت منهم، ضحكوا وهمسوا ومصمصوا، وسمعت مغاوري:

ـ هل ستطير يا عواد؟!

والحاج حسين:

ـ ماذا تفعل عندك يا عواد؟!

وعاد مغاوري:

ـ أمثاله يخاوون الجن!!
فسخر حمدان:
ـ كان يحادث جنية لا نراها!
ونطق الضابط الصغير:
ـ يغزو الإنسان الكواكب وعواد يحارب القمر بالطوب!
مجانين! قال موظف الجمعية:
ـ وما الغريب في مجنون يكلم نفسه؟!
صرخت فيه:
ـ إخرس أنت يا لص.
ثم شكوت للضابط:
ـ هذا الموظف صغير الراتب فقير الأهل فمن أين له بالمال الكثير؟!
ـ أهذا بلاغ ضده؟!
ـ أخذ بصمتي وأعطاني سماداً مغشوشاً وباع الباقي لحسابه.
تجهم الوجه المستدير الكالح:
ـ أعطيتك مثل كل الناس، وأمامك أرض الحاج حسين طرحت محصولاً وفيراً..
فقال الحاج حسين:
ـ يا عواد الشكوى لغير الله مذلة.
غاظتني الدائرة السوداء المتآكلة في جبينه، صرخت فيه:
ـ لأنك أول من يتسلم نصيبه وأكثر من السماد والتقاوي والكسب.
إنسحب مغتاظاً:
ـ هل نقف ونحادث مجنوناً يكلم نفسه؟!

ـ من المجنون يا مجانين، كنت آكلم هنومة زوجتي، وها هي آمامكم يا عميان، ها هي.

لكنها لم تكن جواري!.. يا للعذاب!.. هنومة! كانت تجلس هنا!.. ملتاعاً صرخت: هنومة، فعوى كلب الأعمى.. جريت في كل إتجاه آنادي، فأمتلأت القرية بأصوات كل الكلاب، عواء رفيع وغليظ، طويل وممدود وقصير ومبتور.. بحثت بين الأشجار، قلت قد تكون آخذة لون الرزع، فنقّ ضفدع من جديد وحيداً فجاوبته باقي الضفادع وإختفى ضوء القرص وصار الليل كله كلاباً وضفادع.. وضفادع.. وضاعت الحبيبة!

عدت إلى نافذة النادي، أخافوها هؤلاء الكلاب.. أمسكت بالطوب ورميتهم، صرخ الموظف:

ـ قلت لكم أنه مجنون.

قال الضابط:

ـ بل يدعى الجنون.

أمسكت ببعض الطين.. إنسحبوا جميعهم وأغلقوا الشيش، ألقيت وظللت ألقي بالطوب والطين حتى همدت، ثم إستدرت لأمضي فسمعت صوت الضابطيصرخ غاضباً:

ـ مجرم سفاح، ألقى زوجته في البئر ثم إدعى الجنون.

ألقيت بطوبة أخرى، وإنبثقت دماء القهر من أنفي، لكنني سرت نحو الدار.

* * *

صر باب الدار منزاحاً ـ وصرت الساقية دائرة بالشالّ الأحمر ـ أشعلت عود الثقاب، قفز الفأر من فوق الطبلية وكان يقرض كسرة الخبز الجافة.. أضأت اللمبة فانتشر النور في الأركان.. عنكبت العناكب في الشقوق، وعروق الخشب السوداء ما زالت تحمل السقف، والحصيرة فوق الأرض، الحصيرة التي عرفت جسد هنومة، والطاقة الصغيرة في الحائط ، والسقف، وصندوق الملابس، والغبار يطفيء لمعة رداء هنومة الوردي، والسقف ـ ترك الفأر الخبز الجاف وهرب إلى حجره ـ الخبز والزير الجاف بلا مياه، والهواء عطن، وحردة هنومة الخضراء مسدلة على حافة السرير وشبشبها أسفله، والسقف، وترتر الحردة يلمع.

عدت أشعر برغبة التبول، لكني أجلتها.. واربت الباب وجلست، أنظر إليه وأنتظر، ربما تأتي، تحن إلي وتعود ـ الهواء يوش ثم يسكت ثم يوش والقطط تموء ـ وكانت معي..

تأملت ثوبها، أجمل من ثياب كل النساء.. نهضت وشممت رائحته، عطر من الجنة.. تلفعت به وعدت قبالة الباب، أطل الفأر

حـذراً ثم إرتـد إلى ظـلام حجـره. . أطلت القـطة من عنـد البــاب، ضاع منهار الفأر الجائع، إقتربت في تمهل وتمسحت في قدمي، ربت على شعرها فرفعت ذيلها ثم إستكانت بجواري، لكنها سمعت مواء قط ففرت خارجة بصوت رغوب.

شبشب هنومة، السقف وعروق الخشب السوداء ـ ليلتها رأيت كعب القدم اليمنى ـ ترتر الحردة يبرق ـ ثم رأيت كعب القدم اليسرى ـ مرآتها الصغيرة في البرواز الخشبي، بعض شعرها عالـق بالمشـط. نهضـت وسحبتـه من بين الأسنـان شممتـه ثم وضعتـه في جيبـي وعـدت إلـى مكاني. . . كانت راحتي. .

أنفاسها في الهواء، الشبشب والسقف ـ ولما أنصت إليهـا سمعـت وقع خطوهـا فوق السطح ـ المكحلة والمراود فوق حافة الطاقة. . . ومن الطاقة كانت تسمع صوت الخيار ينمو فتأوهت: «آه يا نفس، ملولة مللت الملال». وكان رخ الليل في الخارج، ثم أمسكت سقاطة الباب: «أريد الصعـود إلى السـطح». . وفتحت البـاب وهتفت: «قـالت أم السعــد دواؤك حلب النجـوم أنوي حلب القمـر، القمر نفسـه». . ثم سمعت وقع خطواتها.

شقوق السقف والعناكب، وكانت تتهادى فوقه. . الشبشب، يكون جميلاً في قدميها. . ثم علا أنين السلم في الخارج، ولما حاولت منعها دفعتني في عصبية «حلب القمر، القمر نفسه». . وتركتها فتناولت الزلعة وبها لبن الحمـارة وخرجـت، وعنـد السلـم تركتهـا، ثم بدأت تصعـد «القمر، القمر نفسه». . ورأيت كعب القدم اليمنى. . ثم كعب القـدم اليسرى، ثم اليمنى، وبعد أن صعدت مالت، وناولتهـا زلعـة اللبـن،

فوضعتها على السطح ومالت ثانية، بحسنها وطيب حضورها وشعرها الحرير، وفوق رأسها كان هناك، القرص.. وقالت ترجوني:

ــ لو أنا حبيبتك أتركني وحدي.

ترددت، كان يحملق فوقها.. قالت:

ــ لو أنت حبيبي أدخل الدار.

أمسكت السلم لأصعد، بدا عليها الزعل وقالت تتوسل:

ــ لأجل خاطري..

قهرتني لأجل خاطرها..

دخلت الدار، وقفت كاتم الأنفاس، أنصت مفتوح الفم، جمدت مكاني، الزير ينشع منه الماء.. جلست عند الحائط أصغي، قطرة ماء، وكان ثوبها الوردي لامعاً، وكان الهواء منعشاً، وفوق السطح وقع خطوها ساحراً رقيقاً وتحت الزير القطرات، وفوق السرير حردتها الخضراء بالترتر البراق.. القطرات ورأيت في الطاقة المكحلة والمراود.. وفوق السطح عزف خطواتها فلم أتمالك وخرجت ثانية، وأمسكت بالسلم، وفي هدوء صعدت ونظرت كلص، ورأيتها، فوق السطح تحت القمر، وكانت تخلع ملابسها ـ وزلعة اللبن جوارها ـ وكانت ترفع طرف الثوب.

إنتشيت أنا وتابعت صعود الثوب، من القدمين إلى الساقين المرمرية إلى البطن العجين الخمران والسرة حتى الرمانتين فالعنق فشفايف سبحان الخلاق.. وتهت، وراح عقلي، وتطوحت رأسي فرأيتني مع حبيبتي في الدار، فوق فرش ملابسي، وهي تتأوه بين ذراعي حالمة منتشية، وأنا من حلاوتها أشرب وأشرب، حتى همت تائها في جنة شهدها، فعرفت طعم

الراحة، قبلة واحدة ونسيت كل شقائي، وشقائي حمل ثقيل لو ألف بعير لنخوا من حمله.

لكني لما رفعت عيني وجدت القرص، في شهوة يحملق: ألا من سحابة سوداء تأتيه وتغمم عليه؟! ألا من غرة شهر عربي تبقيه هلالاً ولا تفارقه فلا يكتمل ولا يستدير قرصاً ويظل مبتوراً لا يبهر حبيبتي؟!

لكنه كان ينظر في زندقة، وكانت راقدة على ظهرها، مفروجة الساقين إلى الأمام، تأخذ اللبن في كفها وتمسع به مكامن السحر: الرمانتين الساقين، وما بين الفخدين.. ليتأوه باقي اللبن في الزلعة، طالباً موضعه فوق الجسد الغالي.. وهى مفرودة الذراعين كمن تصلي للقرص - ابن الكلب - وتضرع!

هبط قليلاً، فأرخت له من رقدة جسدها، مائلة إلى كل إتجاه، عارضة نفسها تدعوه دون أن تبعد عنه عينيها!.. إحترت ماذا أفعل: هل أقفز إليها وأغمض عينيها؟ أم أجذبها قسراً إلى داخل الدار؟ أم أكيده وأرقد فوقها تحت ناظريه، أمسك يديها بيدي وأصلب جسدها من تحتي على الأرض حتى تستكين؟!

لو رجل يا قمر تعالى عندي لأحاربك، لو صاروخ مدرع أطير لك وأنازلك، لو كل تعاويذ السحر لو جميع تمائم الأرض أتلوها وأضرك.

لكن ضوءه يفرشها وهي مسبلة العينين، تثنى كتفيها تفرج ساقيها، فهل هبط ابن الكلب؟!.. ورأيت وجهها يتحرك إلى اليمين فهل يقبل خدها الأيسر؟!.. ثم يتحرك إلى اليسار فهل يقبل خدها الأيمن؟!.. وكانت تعدل رأسها محمرة الوجنتين مرعوشة الشفتين، تضغط بيدها على

ظهره تشده إليها في لهفة وحرص، مستديـر الوجه الأصفر الباهت ـ أخذ بصمتي وكشرت عيناه وقال لي: أنت كاذب وكسول لا تفهم في الزراعة ـ ثم تقلبا على الجانبين وأخذ يفك ضفيرتها فتقلص كل جزء فيها ولم أفعل شيئاً! ! . . ثم فك الضفيرة ورأيت الأصابع بين الجدائل ولم أفعل شيئاً!

* * *

باب الدار أمامي مفتوح، وثوبها حول عنقي، أشم رائحته، رائحتها ـ والفأر الجائع يخرج من جحره ـ ولا صوت ولا حس، إلا العواء، كلب الأعمى لا يكف هذه الليلة، ياسر الليل متى تأتي هنومة؟

سمعت همهمات الأولاد.. إنزاح الباب فجأة وإندفع أحدهم ثم إرتد ذعراً وإنضم للآخرين، حملقوا نحوي ممسكين بالصفيح.. نظرت إليهم ولم أنهض، إطمأنوا قليلاً، تقدموا خطوة، ربما أكثر، نظروا إلى بعضهم محتارين، إبتسمت:

ــ تعالوا

إنتقلوا من ضوء القرص إلى ظل الدار إلى نور لمبتي الصغيرة، ثم دخلوا حذرين متأهبين للهرب، وتشجع الولد النحيف وقال:

ــ مساء الخير يا عم عواد.

رددت عليه فزاد الأطمئنان، وقلت لهم أن يجلسوا فجلسوا مبتعدين نحو الباب منكمشين خوفاً وبرداً، أجسادهم صغيرة وعيونهم تحملق نحوي في شقاوة، فتذكرت في الحال كتاكيت هنومةــ وكنت أمام الدار جالساً في الشمس، عندما فتحت هنومة باب القفص، فخرجت

الكتاكيت لتلعب، مهرولة مرفرفة الأجنحة تجري متعثرة تلتقط رزقها، وتسلق ثلاثة ساق هنومة ونبشوا في حجرها. . . ولم يبتعد عنها أي كتكوت عدا واحداً شرد بعيداً فوضعته في القفص لكنه أفلت من بين الجريد. . وكانت تلقي بالحبوب عندما عادت لسيرتها وقالت:

ــ نصحتني الداية بتبخير الدار قبل حلب النجوم.

فوجئت وسكت، وإنتقلت من الشمس إلى الظل.

ــ لا نجوم ولا بخور، الداية دجالة.

لكنها لو جاءت الآن لفعلت لها كل ما تريد،أكوم لها الحطب والقوالح وأسكب الجاز، وأشعلها فتتأجج النار، وتجدها جاهزة وأبخرها.

وقلت فلأفعل هذا الآن، ومن فوري نهضت فهب الأولاد فزعين، وركضوا هاربين لكني لم أبال. . أحضرت القوالح وأغلقت الباب فأخذوا يدقون عليه وعلى الشباك، أشعلت النار في وسط الدار فسكتت جميع الدقات. . وجلست أفكر، وبدأت أتذكر كل شيء. . .

كانت هنومة تبكي طوال الليل فسمعها القرص ونظر فوجدها أجمل من كل النساء، فطمع فيها وحرض الداية أن تغويها، فأفهمت البنية أن القمر بيده مفتاح الخلفة، وصدقت هنومة المسكينة، وربطت الداية بينها وبين القرص موعداً، ولما حاولت أنا منعها من صعود السطح إليه أصرت. . فرأيت كعب القدم اليمنى، ثم كعب القدم اليسرى ثم اليمنى، نظيفين أحمرين كتفاح الشام. . ثم إرتفعت الحلوة خفيفة كحمامة ولم يئن السلم بأي صوت، إذا صعد عليه أي إنسان ولو طفل أن شاكياً من القدم، لكنه تحت قدمي المعشوقة ظل ساكتاً صامتاً كأن من تصعده في خفة الريشة، مبهور الأنفاس من لمس القدمين، قبلة لبطن القدم اليمني ثم

قبلة لبطن القدم اليسرى، ثم لم يتمالك السلم فنطق وهلل، سمعته ـ وأقسم على هذا ـ يرتل لست الحسن والجمال: «لو بيدي لتزينت لك بورد النرجس وفرشت الياسمين تحت بطن القدمين». . إبتسمت الحبيبة: «لو بيدي لجعلت من نفسي سجادة سحرية أحملك من الأرض إلى السطح حتى أحظى بقعادك فوقي ورقادك».

وكانت السماء ماجوراً أسود مقلوباً فوق الأرض وابن الكلب هناك ناصعاً، يحملق في شهوة بين حبات النجوم، قمر هو أم زير نساء؟!. . وهنومة ترتفع ناظرة إليه، وسمعت السلم يهلل لها: «ولو أقدر لأطلت من طولي حتى تصعدي فوقي العمر كله، لو بيدي لتحولت إلى هواء ألامس جسدك في كل مكان، أتسلل إلى أذنيك أداعب الطبلتين، تتنفسين مني فأدخلك شهيقاً، أحمل لك روائح الزهور من كل البراري والحدائق لتلاطف أنفك، وأن إشتقت للبحر حملت لك أنسامه، وأن تاقت نفسك لهواء الصعيد جئتك به من أسوان». . لكن ما باليد حيلة. .

داست على السطح فزغرد السطح ونطق الجماد: «مشتاق والله لوقع القدمين، عطشان والله لسحر الساقين». .

ثم دخلت أنا الدار فسمعت قطرات الزير، لكنني عدت وصعدت ونظرت وكانت تخلع ملابسها فتنبهت كل الأشياء، وكفت الضفادع وصمتت الكلاب والقطط وكلب الأعمى. . وكان القرص يهبط وطرف الثوب يرتفع في بطء، مسحوباً إلى أعلى في رفق، مر من فوق الصدر فأرتج في تماسك ـ لو رأى ذلك أطهر النساك لركع طالباً القرب ـ ثم من فوق وجهها، وخلصت منه شعرها حتى خلعته وألقته جانباً، ليسارع القرص بضوئه ويدنس الكتفين والذراعين والساقين حتى الركبتين. .

وكان القميص ـ الملس العجيب ـ آخذاً تقاسيم الجسد الحبيب، وبدأت تخلعه، فشهقت أنا وتزحزحت عيدان الحطب وإهتزت في كومتها، وتململت أقراص الجلة.. كلما إرتفع القميص عن جزء عربد القرص فوقه يمسحه يدلكه يربت عليه.. وهنومة ساهمة ناظرة إليه، مستدير الوجه الكالح.. لو سهم سحري أرشقه في قلبه عديم القلب، وقبل أن تخلع ويراها ويبدل لون جسدها.

إلا أن القميص صعد مع إرتفاع اليدين مقبلاً الفخدين والبطن المرمرية وفحلى الرومان والكتفين فالعنق فضفيرة الشعر الحرير، ثم هفهف في الهواء مستقراً على السطح، فهلل السطح، والله، وأنشد وقال: «يا مطرزة الثوب لآخر الذيل، حرمت العشاق من نوم الليل».

وإنتعشت كل الأشياء: الشجر، الطوب، الورد، التراب، الزرع، الضفادع، النخيل، القطط، النجوم، الهواء.

قال الزرع: «رمان رمان».. فشدت السماء: «يا نهودها فحول رمان».

هتف النخيل: «ريان ريان».. فغنت النجوم: «يا عودها قلب الخص ريان».

ثم إستيقظت العصافير في الأعشاش وجاءت وغردت: «مرجان مرجان، يا أسنانها لولى ومرجان،.. فهمست أنا: «غزلان غزلان، يا عيونها عيون غزلان».

ومن جميع الأشجار طارت أطيار، في غير مواعيدها وجاءت وحطت فوق السطح، وزحفت زواحف وحضرت مبهورة تطل من عند السور، وإمتلأ المكان بصغار الحيوان، وتآلفت القطط والفئران.

وحبيبتي بجوار زلعة اللبن، مائلة الجسد على الكوعين، ببطنها وفخديها ووجهها إلى أعلى، إليه.

ولما رأيتها تتعرى له تماماً جف حلقي وجاءني الدوار، وفي غمضة عين دوختني الدوامة.

* * *

وأغمضت عيني وقلت لو بنات الحور يخنقنه فجاءني الدوار وحميت الحمى، وكان يهبط ويصعد عليها بوجهه الصفراوي وفي لمح البصر، في غمضة عين كنت في دوامة ،لعبت الدوامة بي فحملتني وقلبتني وعدلتني ودارت بعقلي وزغللت عيني حتى لم أعد أرى أي شيء، فهل كنت أحلم وأنا فوق السلم؟؟

دوختني الدوامة، ثم وجدت نفسي في دوار، كأنني في حديقة الحور!! . . دوار دوار، فاكهة من كل نواع ـ حلم الأحلام ـ خوخ، برقوق، بلح، تين، بطيخ، شمام، مشمش عنب مانجو ـ بل هي حديقة الحور ـ لا موسم ولا فصول، فاكهة الشتاء مع فاكهة الصيف . . أشجار وارفة يمتد ظلها من الشرق إلى الغرب، أنهار رائعة الماء، وأنهار حليب صافي . . وكن يسبحن، بنات الحور الفاتنات، حلم الأحلام، بل هي الجنة ـ دوار دوار ـ ولوحن لي، حوريات الجنة، وخرجت واحدة وإقتربت مني ـ أتعبني قلبي ـ عيناها فصان ياقوت، إهتزت ساقاي وقاومت الحمى . . . وقلت لها:

جئت إلى أرضك واقع في عرضك، إنسان صغير جاء يستجير من كيد القرص المكير.

كخيوط الذهب جدائلها، في طول النيل ضفائرها، ببسمة تغوى أطهر النسَّاك. . مست شعري فتكهربت، وشعرت بتنميلة لذيذة سرت من الشعر إلى الجلد إلى العظم إلى العقل الذي تاه، إستنجدت بحب هنومة وبأسم محدث الطير وهازم كل الجان.

لكن نقيق الضفادع لا ينقطع، ودق العيال على الباب والشباك، وكلما وقفت سمعتهم يهربون وكلما جلست سمعتهم يقتربون، ولهيب النار يخبو. .

ثم عبثت الحورية في شعر رأسي، وقالت:

ـ ننتظر يوم القيامة حتى يأتينا رجال البشر الأخيار فكيف أتيت بغير قيامة؟!

عيناها في عيني، تغويني:

ـ عندنا من كل صنف أحسن صنف، طيور تشدو في كل صوب، حيوانات تلد من كل نوع، أسماك بحرية ونهرية ومياه نبعية. . . ونحن بلا رجال.

شل لساني ـ دوار ـ وكانت تهمس:

ـ عند بنات الحور كل السعد والسرور.

وأحسست بضعف لكني تقويت بهنومة، وبحسنها الآخر، الذي لم يعرفه أحد غيري، الحنان والعطف وطيب المعشر. ومملكة الحور تهمس:

ـ ترابنا زعفران وحصاناً ياقوت وأسوارنا قرنفل وياسمين، وتغريدنا كأعذب النايات، وقطرة مياه من عندنا تمحو ملوحة كل البحار عندكم.

توسلت وقلت:

ـ لو واجه بهاؤك جمال حبيبتي لغطى نورك عليه وزاد زيادة ماء البحر الكبير على دمعة الطفل الصغير. لكن نومي لا يأتيني إلا وأنفاسها في أنفاسي إلا ودفء جسدها في جسدي، إلا وعذب صوتها في أذني وطيب بدنها في أنفي.

فأستاءت وكفت عن كل شيء وقالت:

ـ فأنت من أهل الأرض إذن!

وعلى الفور هبطت من كل نجم طيور كثيرة، إنتفضت فإذا بها نساء كواعب بأجساد مضيئة، وأصابع طويلة عديدة.. طرن جميعاً إلى القرص في سرعة عجيبة وكان لاهياً محملقاً إلى عرى إمرأتي، وإقتربن منه فداخلته الدهشة وغادرته الضحكة.. أحاطته الأصابع الطويلة تخنقه، وضغطت وضغطت وحوافه تتآكل تتآكل، مكونة من حوله الهالة الباهتة.. قاوم وصرخ، سمعت كل الأفلاك صراخه والأصابع تضغط وبكى ابن الكلب فبكيت أنا من الفرحة.. ثم أعطتني الحورية ضفيرتها، ضفيرة لها أول وليس لها آخر، وقالت أمسك بطرف الضفيرة ولا تتركها، فأمسكت وشعرت بتيار عجيب يلفحني، تحول إلى ريح ذي ضرير، إلى دوامة حملتني وقبلتني ثم عدلتني ودارت بي هابطة، دائرة دائرة حتى صرت لا أرى شيئاً، دوار وأغمضت عيني كي لا يضرني جرى الأفلاك.... ووعيت ـ دوار دوار ـ على الصمت الكامل من حولي ـ دوار دوار ـ لأجد نفسي فوق السلم، والقرص في علاه مخنوق ـ دوار ـ وهنومة في عجب ووجل تحملق مستطلعة.. ثم دق الصفيح فتصنمت بكف يحمي الثديين وكف فوق السرة، والصفائح في الحواري، والهالة تكبر حول القرص، فتآكلت حوافه حتى هرأت، وحتى ضاعت فضته وراحت نصاعته وخف

الأحمرار من خدي الحبيبة. . رفعت ساعديها متوسلة، وسعت من فخديها رافعة نفسها إلى أعلى وإنتظرت، برهة، ثلاثة. . وكان كامل الأختناق فتهدلت وهمد كل جزء فيها وجلست مكدودة، وإنحنى ظهرها.

والصمت في كل الأشياء، والضفادع ساكتة وكلب الأعمى ينبح، والخيار قد كف عن النمو وعن الزقزقة، وكل الأرواح وكل الأشياء سكنت منصتة. وأصغت الغالية وبرقت عيناها، أو ربما سمعت هي صوتاً يناديها فحملقت مذهولة وهبت ناهضة ودارت، دارت ـ فجاءني الدوار وكدت أختنق ـ تم إختناقه وتدلى لسانه فشبكت أصابعها من حول عنقها ـ دوار ـ دوار ـ أحمر وجهها، إزرقت شفتاها، نفرت عروقها.

خفت عليها فقفزت نحوها، وإرتجت أقراص الجلة وكل الطيور والحيوانات والزواحف. . . . حملقت، شهقت. . مادت الأرض بي، صرخت وأنا أفك أصابعها من حول عنقها وهي تقاومني: دعوها، أتركوها، إتركونا، إتركوه.

حملقت في، نظرة دوامها عشرة أهله، فعاودتني الحمى وتراجعت هامساً: لا، لا، لم أتمن شيئاً لم أطلب خنقه، لم أرغب في غير أحضانك.

وكانت عارية فلفت جسدها بالشال الأحمر ودفعتني من سكتها وهبطت نائحة فوق السلم:

ــ يا للشؤم، يا للنحس، هذا فأل السوء، خنقوه ولن تحبل بطني.

حطت قدميها على الأرض، لم تدخل الدار، صارت تجري، لا صوب القرية إلى بيت أبيها بل إلى الخلاء، إلى الظلام، وغاصت في العتمة، عارية إلا من الشال الأحمر. نظرة دوامها عشرة أهلة.

لملمت نفسي وهبطت، جاءني صوتها من الغيطان تصرخ وتولول، جريت وراء الصوت، لم تر عيناي شيئاً، جريت ماداً يدي أمامي ـ كالأعمى ـ وكان صوتها يئن آتياً من عند الساقية:

ــ حبيبتي يا قمر أين أراضيك، لو أعرف يا قمر لجئت أراضيك.

تحسست الصوت في الظلام: «لو أعرف يا قمر لجئت أراضيك».. لمست جسدها وطرف شالها لبرهة: «يا قمر لجئت أراضيك».. لكنني إنكفأت فأختفت مني: «لجئت أراضيك».. نهضت بسرعة وجريت منادياً متوسلاً، ثم أنصت: «أراضيك.. ضيك.. ك.. ك».. وبعد ذلك كان الظلام والصمت.

ناديت فعوى الكلب ونقت الضفادع ونبحت باقي الكلاب، ثم زقزق الخيار، وسمعت الصفيح.. ودار العيال في الحواري ليخيفوا بنات الحور، والقرص مخنوق في السماء.

وطوال الليل درت أنادي بأسمها في كل الغيطان.. عدت إلى القرية ودرت في الطرقات ودار الناس وكل القرية وكل الخلق يبحثون حتى الفجر حتى الصباح.. ودارت الساقية وأزت العجلة وخرجت بشال أحمر عجيب، وسألني الضابط:

ــ أهي إمرأتك يا رجل..

نظرت، ولم أصدق، وأنكرتها.. وطفت أنادي.

* * *

العيـال العفاريت ينقـرون على البـاب والشبـاك يحيـطون الـدار بالدقات، ولهيب النار خبا والقوالح صارت جمراً، ولو جاءت هنومة الآن فسوف أبخرها، كانت تريدني أن أبخرها وأقص ورقة على شكل رجل، مسخ له وجه القرص ليأتي ويتقصمها فأطرد الأرواح الشريرة. . وتعبر حبيبتي فوق البخور سبـع مرات، ثم ألقى إلى النـار ببخور القسيس، وترفع هي طرف الثوب قليلاً كي لا تمسك به النار.

لكني لا أعرف ماذا أقول؟!. . تخطو الخطوة الأولى، ثم الخطوة الثانية عائدة، وبالساق اليمنى تعمل الثالثة وتتنهد فيحمر خداها وتتوهج النار، وينتشر الدخان ويدور مسحوراً في دوامة. . وألقى ببخور الشيخ فتقوم بالخطوة الرابعة أرقيها من عين المرأة الغيرانة ومن عيون الرجال الطماعة. . وتتشخص الأشباح في الدخان، نساء ورجال، وأرقيها من داء العقم، ثم تأتي حبيبتي، وأهلل في وجهها: يا معبودة، تأخرت أربع خطوات، أمسكي بطرف يـدي، إستندي علي في الخـطوة الخامسـة لأرقيك:

ـــ من عين الجارة وكل نمامة مكارة.

في خفة ألقي بحفنة من عين العفـريت، تطقـطق النار، ويتـطاير الشرار في الدخان بعيون الجان عيون أشرار كفـار . . إتركوا الدار بكل عقم خبيث.

والخطوة السادسة بالعيدان اليابسة . . خذي يا نار اليبس والجفاف وهات يا نار الخضرة والعطاء:

ـــ ومن عين من رأوكي وإشتهوكي ، ما عدا من أحبوكي.

والسابعة:

ـــ قرب وغرب ، قرب وغرب.

أمسك بالأبرة وبمسخ القرص، ثقب في العين اليمنى:

ـــ أعينهم مردودة عليهم . .

وثقب في العين اليسرى:

ـــ والكربة عنك مفروجة . .

ويحمر وجهها من الدم وضي الجمر، وتغمض وتنزوي:

ـــ طيري يا عين كما طارت الريشة، وإنشقي يا عين كما إنشقت الحشيشة . .

تشهق ملتاعة: «إنشق يا رحمي عن ولد من دمي ولحمي».

ثقب في وجـه الموظف المستـديـر البـاهت، وثقبـان في نجمتي

الضابط الصغير، وآخر في اللطعة السوداء في جبين الحاج حسين. . ثم ثقب في القلب.

ـ آه يا قلب. .

تتأوه وتئن مكتومة الصرخة، تشهق شهقة الغريق، الدموع، العرق في الجبين. . وأمد يدي بالمسخ إلى النار في بطء، فتتنبه الحبيبة. . أنزل يدي، تفتح فاها. . أقرب المسخ، تتسع عيناها تبحلق تبحلق في الوهج تصطك أسنانها. . أترك المسخ يقع، شهقة الغريق. . ويصفر القرص فتصرخ هنومة. . لا وتنثني الورقة فتفرد كفيها. . ويتكور ابن الكلب وتسود حوافه وتدور البنية حول نفسها دورات سريعة مضغومة الكلام: «وإنشق يا رحمي عن ولد من دمي ولحمي». . وهي تدور وتدور حول نفسها مِرفوعة الوجه مشبوكة الأصابع من حول العنق ـ دوار دوار ـ وجسدها كله يرتعش: «وإنشق يا رحمي إنشق». . تدخن الورقة فتجيء إلى الدخان أشباح الجان بالزمر والدفوف، وتبدأ تدق، تدق تدق داخل النار، ويدفدف الدف ـ وخارج الدار يدق صفيح العيال والشباك والباب ـ وأتلو أنا بسرعة.

ـ أقسمت عليك أيتها الروح العقيم: إن كنت في القلب أخرجي مع الدم، إن كنت في الدم إخرجي إلى اللحم، إلى العظم، أقسمت عليك بحق سيد الكون، بحق من هو على العرش إستوى: إن كنت في العظم إخرجي إلى الجلد، إلى الشعر، إلى الهواء. . خذي الدخان وهاتي البرهان، رديها حبيبتي كما كانت حبيبتي.

وتدور البنية كحجر الرحا، دجاجة مذبوحة: «إنشق يا رحمي عن ولد من دمي ولحمي». . يصير القرص رماداً فتعوى وترتمي وترتجف وتعرق وتلهث، تشهق وتغمـض بشدة، وتشد شعرها. . وبعد ذلك تبدأ تستكين، وتخمد النار، وتستكين وتسكت الدفوف ـ لكن الصفيح يدق والباب يدق والشباك يدق ـ ومن كل أركان الدار يتجمع الدخان في شريط طويل، ترتج فيه حواف الأشباح وهنومة، وتتموج ـ وكان جسدها مزرقاً وبطنها منتفخة ووجهها مشوهاً فأنكرتهـا ـ ويتثنى الدخـان وأسمع فيـه الصفير متوجهاً إلى الباب خارجاً من تحت عقبه منقشعاً، فيهتز السقف والجدران، ويرتج الشباك عنيفاً منفتحاً، وألمح العيال يحملقون؟

وفي الحال شممت هواء الليل، وسمعت الضفادع وكلب الأعمى والخيار ـ في ليلة واحدة تكبـر الخيارة وتنمـو ـ وهنومـة أين هي؟!. . إنقشع الدخان فهربت كل الأشباح بهنومة!. .

ــ أنا صاحب النار والبخور يا أشباح، وأنا صانع الدخان يا شياطين، وتخطفون مني هنومة، وهي الحبيبة؟!

طوحت بالموقد فتناثر جمر النار في كل أركان الدار. . وتضاحك الأولاد ففتحت الباب وخرجت ومن ورائهم جريت، فلما طالت كفي قفا واحد منهم تشتتوا جميعاً، وإختفوا ولم أجدهم. . ومشيت.

تركت في الدار جمر النار ومشيت. .

* * *

مضيت في طريقي أبكي رفيقي، السكة موحشة والبرد فيه الضرر. . فكرت وتحسرت على نفسي: الفأر الأبيض يقرض نصف يومي والفأر الأسود يقرض النصف الآخر ومستدير الوجه قرض حقي ولم أقدر على فعل شيء! . . . . والغول في نهاية السكة مفتوح الفم، ينتظر توقف القلب، ولا أجد أمنية هذا القلب، ولا أفهم ما يدور، فصرت كالسمك الصغير في البحر الكبير ما أنا راسي، وضاقت حالي فصارت مراقد النمل أوسع من مناماتي، وصارت مقاطع النيل أضيق من جروحاتي . .

طرقت الباب فأنزاح الخشب ولاح العجوز وزوجة العجوز:

ــ يا شيخ مفتاح أين هنومة؟

رأيت عطف الرجل، لمحت دموع الزوجة. . قلت:

ــ دليني يا حماتي عن مكان هنومة، دليني.

أجهشت المرأة، قال الشيخ:

ــ عواد يا مسكين مزقت ثوبك ولوثت بدنك، لماذا لا ترضي بالمكتوب؟!

ــ لكنها كانت معي منذ قليل، هنومة، كانت تطير.

ــ يا غلبان أرض بالمقسوم، هنومة راحت، منذ شهور راحت.

أزّ الباب منغلقاً، وجاء الخشب في عيني . . . قلت للضابط: ليست إمرأتي، لكن هذا الشيخ نتف شعر ذقنه في لوعة وبكى! . . تعالى أزيز الساقية وأنين العجلة وخرير المياه وصوت صبيهـا يغني، وكنت قريباً منه أرقب كل شيء، وأنتظر، ودارت الجاموسة مغماة العينين، تظن أنها تسير في طريق طويل وهي تدور حول العمود، ما تمشيه تعود وتمشيه، والتروس تصر في صرير كئيب، والماء يخرج من جوف البئر ـ وكنت أنتظر ـ ليروي الأرض لينبت الزرع وينمو ويثمر. . وفجأة صمت الصبي، وأوقف الجاموسة وحملق: خرجت العجلة بالشال الأحمر العجيب، فصرخ والتقطه وهو ينقط الماء وهرع به إلى القرية صائحاً، فالتف من حوله كل الفلاحين.

خشب الباب في وجهي ومن خلفه أنين الشيخ ونحيب الزوجة. . إستدرت أبتعد، لا أعرف إلى أين. . وأصوات الصراصير من حولي، وظلي أمامي باهت، أمشي فيمشي، يتكسر مع التراب، يتموج مع الطين. . وقط يقفز عاقراً قطة من قفاها فترفع رأسها صامتة لينسحب قط ثالث خائب الأمل، وابن الكلب نالها مني وكنت داوودها. . كنت فوق السلم ففوجئت بها على السطح عارية بارزة النهدين مرمرية الفخذين، نصف أنسية نصف جنية . . . وهو بوجهه الأصفر الباهت المستدير يهبط ويصعد ـ ثم كشرت عيناه وقال أنت كاذب ومهمل ولا تفهم في الفلاحة،

وتمنيت أن أخنقه ـ لكني شعرت بالدوار وأغمضت عيني، وإنبثقت دماء القهر من أنفي . .

* * *

منكبس الرأس عبرت كوم السماد، ودخلت في أول حارة، والليل كله عواء كلاب ونقيق ضفادع . . لكنني سمعت صوتاً:

ــ رح دارك يا عواد، إسترح في بيتك يا مسكين.

من أمام داره كلمني عبد السميع، رحت عنده وربت على كتفه:

ــ لا تحزن أنت يا مسكين، لا تحزن.

في عشرة أيام زادت عمره عشرة أعوام وتقوس ظهره، وظهر الشيب في سواد شعره. . سقطت بقرته ميتة، فجأة، ولم يسعفه أحد بسكين، ولما علمت زوجته أن البقرة ذهبت فطيساً نزفت دماؤها من حوضها وأجهضت وخرج الجنين ميتاً، فجلست تعول وتبكي البقرة وتبكي الجنين. . لكنها ولود دائمة الحمل. . قلت له:

ــ شد حيلك يا عبد السميع، شذ حيلك.

ــ العوض عند الله.

ــ لا تحزن، لا تحزن.

قال:

ــ إرض أنت بما جرى يا مسكين، وحاول أن تنسى. . عد إلى دارك.

وشاهدت ظلي الباهت على الجدار، وكنت أفهم أن النار في الدار فمضيت. . ألحت على رغبة التبول فتوقفت: الألم يكون في البداية، والبداية تتأخر داماً، هكذا. . كي يزداد الألم وتدمع العينان، ثم ينسال، البول، بلا ألم، بألم لذيذ، لكن النهاية ألعن، دموية، جعلتني أصرخ من عزم ما بي:

ــ يا أيوب، يا من بليت بالظلم والمكتوب، كأس الهناء كلما أدرته جاءني بالمقلوب. .

فخرجت النسوة وسحبن الأطفال، وسمعت الأبواب تنغلق، كلما مررت بجوار أحداها رأيته ينغلق، باب من بعد باب من بعد باب، والخشب يأتي في وجهي. . ورأيت أم السعد الداية تأتي نحوي متنمرة، ومن خلفها ولدها السمين محروس مبطوح الرأس. . لكني سمعت صوت نصوح يهتف بي:

ــ يا عواد يا ولدي، ما دمت قد شربت الحلو فلابد أن تعرف طعم المر.

إستدرت إليه:

ــ يا شيخ طول عمري أغمس خبزي في المر، والحلو ما رسوت له على بر. كل الناس نالت بختاً كاملاً إلا أنا، ربع بخت ومال!.

لكن أم السعد وقفت أمامي، كالعنزة النطاحة، تكلمت:

ــ ماذا فعلت بولدي؟!

ــ ماذا فعلت أنت بزوجتي؟!

ـ كل ما ظننته خيراً، كانت تريد ولداً، وكنت أساعدك. .

رأس ولدها مبطوحة ملفوفة بحـردة قديمـة، أطلت من خلفها ثم إختفت. . قالت الداية:

ـ لم أفعل معها الشيء الرديء، أرادت الخلفة وكنت أساعدك.

ـ كنت تقتلينها يا فاسدة. .

ـ يا عواد ما وقع كان القدر والمكتوب فلماذا تضرب ولدي؟! ماذا فعل لك حتى تضربه بالطوب عند البئر وهو الصغير وهو المسكين!

ـ تخرفين يا عجوز البوم، تخرفين.

أشرت إلى السماء:

ـ بين وبين القرص ثأر فنازلته وضربته حتى صـرخ، مالـك أنت والنزال كان بيني وبين القرص؟!

تراجعت البومة مرجعة ولدها بظهرها رافعة رأسها، ضاربة صدرها بكفها. . لكنني سألتها قبل أن تمشي عن زوجة الجرار:

ـ هل وضعت؟

ـ وضعت.

ـ ولداً أم بنتاً؟

ـ ولداً، لماذا تسأل؟!

ضحكت، سمعت ضحكتي. . خبطت البومة كفيها مدهوشة:

ـ عوضك الله في عقلك يا غلبان.

ومشت بمحروسها تنبه عليه:

ـ إياك يا ولد وإطالة القعود في نور القمر، أنظر ما أصاب عواد، أصابته لطشة القمر فطار عقله وصار ملحوساً!

العبيطة!!

ورحت لدار السائق ـ أحب رؤية الولادة ـ وكان الباب موارباً . .

ترددت ثم دفعته في خفة ودخلت خطوة: إنصرفت النسوة، والسائق وحيد قرب الوالدة ينظر إلى وليده في دهشة وعطف، وزوجته مستكينة هادئة الأنفاس جميلة الوجه كالملائكة وبجوارها كتلة اللحم الصغيرة . . ماذا لو أنجبت هنومة بمثله أو أقل منه؟! ماذا لو حملت وأخرجت وليداً يأتي من رحمها موصولاً من سرته، فتمسك الداية بخلاصه وتعقده عند السرة ثم تقطع الباقي، وتمسك إبني وابن هنومة تضربه في لطف فينظر الولد إلى ما حوله ويغرد صارخاً فتزغرد الجارات، ونعمل له السبوع ونلقي بالملح في عين الحسود وندق بالهون ليتعود على دق الزمان . . وتفرح هنومة وأفرح بجسده الضئيل . . جميع جسده على مقاس كفي، لكن له كل شيء: رأس وأنف وبطن وأصابع وله عضو صغير.

ضحكت وقلت:

ـ مبروك.

تنبها بغتة كأنني عقرب، تنمر السائق وإنحنت المرأة مذعورة، تحمي وليدها مني! . . توسلت إليها:

ـ لا تخافي مني، لا تخافي . . أريد أن ألمسه، فقط ألمسه.

لكن الرجل أمسك بحديدة الجرار، فتقهقرت وتراجعت حتى جاء

خشب الباب في وجهي، فأستدرت ومضيت. .

* * *

عيناه سواد وسط بياض مصبوغ بالدم. . نظر كلب الأعمى مكشراً. .

سمعت عواءه المبحوح الوسط فقلت يتألم المسكين من ربطه بالحبل القصير، وقلت أفكه. . فلما رآني حملق بسواد عينيه مكشراً. . وبدأت أشم رائحة الدخان!. .

ففككت حبله وتوقعت أن يجري فرحاناً فلم يفعل ظل مكانه منكس الذيل، يحوم حول الجذع، يدور ثم ينظر ولا يبتعد!. . حثثته وزققته فهبطت بطنه إلى الأرض، كأنه ما زال مربوطاً ـ مر قطار الفجر ـ ودفعته بقدمي فأستمات مكانه. . إغتظت وسببته:

ــ يا كلب الأعمى، يا كلب الأعمى!

زاد إنكماشه وإنكسرت عيناه، فقرفت منه وتركته لاعناً:

ــ الأب ذئب والأم كلبة جرباء.

* * *

تنهدت من حرقة قهري فذبلت حواف الأعشاب القريبة. . وعدت أشم الدخان، ورأيته يتصاعد من داري، مفضضاً بلون القرص!. . إندهشت وأخذت أجري إلى الدار، لهثت من الجري وعرقت وتعبت

فأرتعشت من البرد . . صبرت كثيراً والصبر أمر من علقم الصبار، إحصوا الغلابة مع المساكين وسألوني : أنحصيك؟ قلت : أحصوني ، وفي سفينة الذل مع الخصام حطوني . . كادني الزمن الرديء وكواني .

صرخت بأعي صوتي :

ــ يا زمن أصلح معي بالعجل ، يا حظ يا مكتوب إعدل معي ، يا دنيا يا قلابة إنصفي حالي .

أطلت رؤوس من فوق البيوت :

ــ يا مقدر يا بخت يا نصيب ، بأي أسم تكون بعيد أو قريب : أظهر وتعال صارعني ، نازلني .

زادت الرؤوس وبحلقت عيون وسمعت الضحكات والمصمصات :

ــ إن كنت في سابع أرض أو سابع سماء ، في الهواء في الدخان في أي مكان وبأية صورة أخرج وحاربني .

الهمهمات وزاد الدخان ، ورأيت جريدة على الأرض :

ــ لا تكيد عن بعد ، لا تدس السم في الظهر . . تعال نازلني منازلة رجال ، منازلة أنداد .

ملت ألتقط الجريدة فأختفت الرؤوس . . وآلمني عمودي الفقري .

* * *

وباب الدار ينفث الدخان من عقبة ومن شروخه ومن الشباك رأيت الشرر يتطاير، وسمعت الطقطقة. . هل سيحترق الفأر الجائع؟

إبتعدت للخلف وتكومت، فشعرت بجملتي دمامل، وخرج الدخان وأغرورقت عيناي. . وقلت سوف أبكي وأجعل دموعي تنسال سيولاً حتى تملأ الأرض وتعلو علها تطفيء النار في الداخل، وأخذت أبكي وتساقطت دموعي. . وتساقطت المياه من العجلة وهي تئز في نحيب، وكنت عن قريب أرقب الساقية وأنتظر، وكانت الجاموسة تدور مغمومة العينين، فرأى الصبي الشال الأحمر العجيب يقطر، فلقطه وجرى به وقطرات الماء تتساقط منه، ورآه الشيخ مفتاح فشهق وشد شعر ذقنه ولطمت الطماعة خديها وولولت. . أما أنا فقد نظرت إلى البئر فرأيت السواد، وقرب الحافة ظلال الناس، هتفت:

هنومة.

فرد البئر:

ـ هنومة. . نومه. . مه. .

ثم رأيتهم يخرجون إمرأة عارية من الجوف، وناحت حماتي وبكت بعض الصبايا وحزن كل الرجال.. إقتربت وتفحصت الجثة، وسألني الضابط الصغير:

ــ أي إمرأتك يا رجل؟

الوجه منتفخ مزرق والعينان جاحظتان في هوس وذعر والشفاه غليظة فظة والبطن مملوء.. بالطبع ليست هنومتي، جمال هنومة لا يقهر:

ــ بالطبع ليست هنومة. يا مجانين هنومة بديعة جميلة وهذه قبيحة فظيعة!

وأعطيتهم ظهري وتوجهت إلى القرية، حاول الشيخ منعي فدفعته.. وأخذت أسأل كل الرجال وكل النساء: هل رأى أحدكم هنومة؟ من منكم شاهد إمرأتي؟.. فكانوا يبتعدون عني ويهملونني وحيداً بلا جواب.

النار في الداخل والقرص في العالي، والدخان في كل مكان، والأقدام تهرول مقتربة، والأصوات تصخب في عجب: «عواد حرق داره، ذهب عقله فحرق داره».

شعرت بجوع عظيم وضاق صدري من كل شيء حتى كدت أفقد عقلي، لكني واجهت النيران وقلت ربما ظهر الآن، وصرخت:

ــ يا مقدر يا مكتوب، يا جبار.

تكاثر الناس وتصارخوا. هتفت:

ـ يا بخت يا نصيب، يا غدار.

وجاء بعضهم بصفائح الماء والبلاليص والقدور.

ـ بأي أسم تكون، أخرج ونازلني . .

إرتجت الأرض وإزرقت النار، وسمعت شخيراً عظيماً . . ثم إنقشع كل ذلك عن كائن لم أر له مثيلاً لا في الحياة ولا في الحواديت: طويل كالنخلة بشعر كأذناب البهائم، ثلثه وحش بعيون تطل في كل مكان، وثلثه نار إلى الخارج وإلى الداخل، وثلثه إنسان رديء! . . غول جحظت جميع عيونه فأتقدت جميع الأركان وفرقعت.

فزعت وأشرت ـ جميعهم لاهون بأطفاء النار ـ فكرت وقلت كيف لا يرونه وهو ضخم وهو يملأ كل المكان؟! كيف لا يسمعونه وشخيره كشخير ألف جاموسة؟! . . فزعت وأشرت، وفكرت في بالي، من أين لي بسلاح أهزه في يميني فتأتي المنية لغول الزمان والبين؟!

سكبوا المياه لكن النار أقوى، فدنوت منها ومن غول الزمان:

ـ هل سمعتني أيها الحقير؟ أقول بأي أسم تكون، مقدر أو حظ أو مكتوب، بخت أو نصيب بأي شكل تكون: حتى أن جفت من عروقي كل دمائي سأظل أنازلك سأظل أقاتلك:

فزع الجميع، قال القريب:

ـ جاءه الكفر من بعد الجنون!

حملقت من الغول جميع العيون فزاد رعبي، لكني تشجعت وقلت:

أما قاتل أو مقتول، وإن مت ستكفي دموعي للغسيل وزيادة.

أول نيشان منه جاءني في الجنب إلى القلب ما بين الضلوع، سالت دموعي . . صرخت:

ــ لن أنخ مهما كان ثقيل البلية، لن أنخ.

وضعت في رأسي مكر الثعالب، وفي بدني عزم الضراغم وصرخت فيه:

ــ نذراً علي لأحرقك، لأسخطك فأراً وانقلب لك قطاً.

وقبل أن أدخل إليه إلتفت إلى كل الناس وقلت:

ــ أمانةيا كل الناس إن مت لا تدفنوني في ظل شجـرة أو بجانب ترعة، لكن في أعلى مكان فوق أعلى ربوة تضعوني.

دفعوني . . صرخت:

ــ ليطل عليكم قبري فتسألون: قبر من هذا؟ فتجيبكم روحي: قبر من كان شهيد القهر والمكتوب.

صدمني أحد الرجال فوقع منه البلاص، سبني ونهرني:

ــ إبعد يا معتوه، إبعد يا ملتاث.

لكني أكملت لكل الناس:

ــ لعل فتى مثلي إن رأى ذلك قد يغضب وقد يثأر . .

ألقـوني بعيداً فـأصطدمت رأسي في جـدار الجار، وجـاء الطين والطوب في عيني . . ورأيت جنازة تشيع، على رأسها الشيخ مفتاح، جن الشيخ على كبر . . نعش محمول وعدد من الرجال وعلى الجانبين وقفت

النسوة في السواد، سألتهن عن هنومة: أشاحت واحدة ومصمصت الثانية وأشارت الثالثة إلى النعش المحمول فشتمتها، الحقودة الغيارة، وأعولت كل النساء.

وجاء طين الجدار والطوب في عيني، وإنبثقت دماء القهر من أنفي، لكني تساندت عليه ووقفت وهتفت:

ـ أمانة يا أصحاب: إن مت إبعدوا عن قبري البقر والجاموس حتى لا يدهسوه، فتسألون: قبر من هذا الذي هدمه البقر والجاموس؟! فترد روحي قبر الذي ذاق الأمرين فكان نصيبه الكي على الجانبين.

لكنه كان يبدل شكله من حال إلى حال، مرة هو حيوان من ذوي الأربع بوجه أصفر باهت مستدير ومرة طائر كالرخ بنجوم صفراء، ومرة ناعم كالحية الرقطاء أو نافث شباك كالعنكبوت.. ولم تكن النيران بقادرة على حرقه!

رغم فزعي وهلعي إندفعت نحوه صارخاً:

ـ يا حقير يا لعين، سوف ترى إني لا أهاب النار، سوف ترى ما أنا فاعل: سأحطك في قمقم من نحاس وأسبك عليك بماء النار والرصاص، أرميك في بحر غويط تتوه فيه أعتى الأفراس ويغرق فيه أشهر الغطاس.

دخلت من باب الدار، شهقت النساء والأبكار، وتكاتف على الرجال، سحبوني وجرجروني... قلت لهم:

ـ دعوني أناوشه وأقاتله، إسمعوا كلامي وإتركوني أخلصكم منه.

قاومتهم حتى عرقت وعلا شهيقي وعلا زفيري.. وعلا صوت يقول:

ـ النار إن أكلت لا تشبع، إطفئوها يا ناس وإلا إلتهمت ديارنا.

أما أنا فقد لاحظت أن الدنيا من حولي مصبوغة بلون أحمر متراقص، فكرت وسألت: ما السر في هذا اللون الأحمر المتراقص؟!.. لكنني لم أندهش ولم أستغرب، وقلت: هذا لون دمائي، سالت وعلت حتى غطت كل البرية.. قلت: لأن ذلك ليس بلون الشروق.. صاح الديك العبيط في غير موعده فتعجبت لكنني قلت: وهذا أيضاً ليس صياح الشروق.

وطفت أنادي،،،

* * *

الفهرس

كتب للمؤلف

رقم الايداع ٢٦٤٨ / ٨٦ الترقيم الدولى ٦ ـ ٠٥٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE